الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مرتين فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الثانى عشر — ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٥ يوليه سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة			
٧١٤	حفلة عرس	لبلاسكو ايبانيز	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ... ...
٧٢١	خيانة فى رسائل	قصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٧٢٨	يوميات نائب فى الأرياف ...	صور مصرية	بقلم الأستاذ توفيق الحكيم ... ...
٧٣٤	الذبابة	للكاتبة كاترين منسفيلد ...	بقلم الأستاذ عبدالحميد حمدى ... ...
٧٣٩	ناهد	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ...
٧٤٨	ماتيو فالكونى	لبرسبير ميريميه	بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب ... ...
٧٥٣	بعد عشرين عاماً	لتوماس هاردى	بقلم الأديب نظمى خليل ... ...
٧٦١	اعترافات فنى المصر	لألفريد دى موسيه ...	بقلم الأستاذ فليكس فارس ... ...
٧٦٨	الأوذيسة	لهوميروس	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...

حفلة العرس

للكاتب الاسباني بلاسكو ايبانيز

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

ولد ايبانيز فى مدينة بلنسية سنة ١٨٦٧ ودرس الحقوق كمعظم الشبان المتعلمين فى أسبانيا ، ولكنه اشتغل بالسياسة فى جدة الشباب ، ودعا إلى الجمهورية ثائراً ضد نظام الحكم الملكى فى بلاده ؛ وتعرضت حياته للخطر عدة مرات بسبب الثورات الناشئة عن أسباب من بينها دعوته . وبدأ عهده الأدبى باصدار مجلدين من الأقاصيص التى يصف فيها حياة أهل بلده ؛ وفى سنة ١٨٩٧ أصدر روايته « الكوخ » وهى تعد خير مؤلفاته ، وأصدر بعدها « فاكهة النبيذ » و « الكندرائية » و « الرمل والدم » . وقد عمل فى هذه الكتب على عادات بلاده . وفى سنة ١٩١٢ رحل إلى أمريكا الجنوبية ، ولكنه عاد قبل أن يتم برنامج رحلته ، وذلك فى سنة ١٩١٤ بسبب نشوب الحرب العالمية وبسبب حاجته إلى المال . وعرض على الحكومة الفرنسية خدماته كناشر للدعاية فقبلتها بأجر عظيم فوضع روايته « الفرسان الأربعة » وقد اشتهرت فى دول الحلفاء شهرة عظيمة ، ثم وضع كتاباً عن الملك ألفونس جعل عنوانه « ألفونس غير المقنع » فطرد من أسبانيا وأحدث الكتاب ضجة عظيمة فى أوربا . ومات ايبانيز منذ سنوات

— ١ —

مدينة « بنى مصلان » مدينة أسبانية نائمة يحيط بها مثل البحر من أشجار الزيتون والكروم

جدران بيضاء ، ونوافذ مظلمة ، وفى الوسط قبة كنيسة خضراء وحصن عال كاد يبليه الزمن

مدينة بنى مصلان قرية ككل قرى أسبانيا متأخرة مظلمة غير قابلة للتطور ، تحكمها التقاليد العتيقة ، ويسودها سوء الظن والأهواء الجامحة والعداوات والأحقاد . وأهلها بسطاء لا يبالون بالعالم ولا بما يجرى فيه ، مسرفون فى محباتهم وفى عداواتهم وأطماعهم

قرية بنى مصلان وطن «ماريبيتا» ، و «توتى» و « سجارات » و «العم سانتو» ووطن بضع مئات على هذه الشاكلة

— ٢ —

« تيوسانتو » أو العم سانتو قد أعلن عزمه على الزواج للمرة الثانية

ولكى تفهم تأثير هذا الخبر فى قريته يحسن أن تعلم أن العم سانتو أكبر دافع للضرائب فى الاقليم كله ، وأن له الزعامة فى قريته ، وأن التى يريد الزواج منها بنت راع فقير . وهل تسأل عن المهر الذى سيقدمه إليها ؟ نظرات ساحرة من عينين سوداوين طويلتى الأهداب وشعر لامع رجراج

ولم تكن دهشة القرية أقل من غيظها ، ولا اختلف الرأى فيها بين واحد وواحد ، فالكل يردد جملة بعينها وهى كيف يتزوج رجل فى هذا العمر من فتاة كهذه ؟ رجل يملك نصف الزمام ، وفى منزله مائة قربة من النبيذ القديم ، وفى مربط خيله خمسة بغال ، ثم يترك هذا كله لابنة فقيرة مثل ماريبيتا ، تلك التى كانت فى طفولتها تحصل على خبزها ، كما تحصل الفأرة على قوتها ! مسكينة زوجته الأولى ! لقد تركت

قصرها وضيعتها لهذا الزوج القليل الوفاء ، وتركت للزوجة الثانيـة فراش منزلها الذى كانت مزهوة به فى الحياة ... هل تعود تلك المسكينة من القبر لترى ذلك الفراش فى حوزة من كان الناس يتصدقون عليها بالطعام ؟

ابن ست وخمسين يتزوج من أجل الحب ! انظروا إليه كيف يرقص ، وأنصتوا إليه كيف يتكلم ، وراقبوا النظرة البلهاء التى تبـدو على وجهه . إنه كالشاب الصغير عندما يعالج الحب للمرة الأولى

واتفق أهل القرية على أن العم سانتو فقد عقله ؛ وكان يحدث فى الكنيسة فى يوم الأحد من كل أسبوع ما يشبه المظاهرة ، فان أهل الزوجة الأولى يحضرون الصلاة ، وعند انتهائها يلتفون بصهرهم القديم وتثور ثائرتهم ، ويصفونه بأنه لص ... نعم إن قريبتهم أوصت له قبل الوفاة بكل ما تملك ، ولكنهـا كانت تعتقد أنه لن يخون ذكراها ، وهاهوذا يدفع بهذه الثروة إلى فتاة صغيرة — ومن نمط منحط — إن العالم ليعد خالياً من العـدالة ، إذا سمح لابن السادسة والخمسين بأن يفعل هـذا

وكان أهل القرية يجتمعون حول أهل الزوجة الأولى ، ويحثونهم على مقاضاة الرجل وفسخ عقد الوصية

وفى غير أيام الأحد كان مثل هذا الحديث يدور فى المقاهى وفى الميادين العامة والشوارع ؛ وكان يشترك فيه حتى الفتيات من بنات الأسر الكبيرة اللواتى كن ينفضن أيديهن من حديث على يتعلق بالزواج لولا تحدث كل أهل القرية به

وكان أهل القرية يعلمون فضلاً عن ذلك أن لماريبيتا عشيقاً يدعى تونى ويطلقون عليـه لقب « الهلاهيل » لرثاثة ملبسه ، وهو مثل حبيبته فقير معدم ، وقد كاد يتم زواجها منه لولا أنها أرجأت ذلك إلى أن يجد عملا يكتسب منه وإلى أن يتخلص من أصدقائه وكلهم من عشراء السوء

وكان من أعز هؤلاء الأصدقاء رجل يدعى ديوميني يقيم فى قرية مجاورة ويأتى لزيارته مرة على الأقل فى كل أسبوع

وعلى حين فجأة أصبح أهل الزوجة المتوفاة يكرمون « تونى » ويعزونه لأنهم على ما يظهر قد وجدوا فيه الرجل الذى يصلح للأخذ بثأرهم ؛ وكثر فى القرية المغيظة من يكرم تونى ويدعوه إلى مجالسه وطعامه وشرابه

وكانوا يقولون له ليستثيروه : « تونى ! أما علمت أن ماريبيتا ستتزوج ؟ » فينظر إليهم وذهنه شارد ، وينقل لفافة التبغ من أحد جانبى فمه الى الجانب الآخر ، ثم يحدق فى قارورة النبيذ ، وأخيراً يهز كتفيه ويقول :

« هم يقولون ذلك . لقد كان الأولى بهذا الشيخ الخرف ألا يتكلم عن الزواج إلا بعد تمامه »

وكان فى هذا الجواب ما يقنع كل إنسان بأن أمرا سيحدث ؛ وكيف لا يحدث أمر وتونى يتوعد هذا الوعيـد وخصمه ليس بالرجل الضعيف ؟ إن العم سانتو قد انتخب عمدة عدة مرات . وقد رفع يده بالعصى على رجال أكبر وأقوى منـه لأنهم وقفوا فى سبيله

لذلك كان أهل القرية يترقبون ما سـيحدث باهتمام شديد

— ٣ —

اشتهر العم سانتو بأنه من الذين إذا قاموا بأى عمل أدوه على وجهه الأكمل . وقد ظهر صدق هذه الشهرة فى اليوم المحدد لتوقيع عقد الزواج فقد وهب زوجته ثلاثمائة مثقال من الذهب نقداً غير ثياب العرس وخواتم الخطبة والأمشاط وفراش المنزل وهو من مخلفات زوجته الأولى ، وغير تكاليف الوليمة التى دعا اليها المئات ، وغير الهدايا التى أرسلت الى منزل أبيها على ظهور ثلاثة بغال . ولا تسل عن المناديل وزجاجات العطر والأوانى الفضية مذهبة وغير مذهبة

وحضر الوليمة كل المشتغلين بالسياسة فى الاقليم وعلى رأسهم نائب البرلمان

وأهديت الهدايا الى العروس من كبار المدعوين ، فعدّ ما شئت من العقود وأمشاط الشعر والمصوغات المختلفة التى كانت تتلقاها وهى شديدة الخجل . أما أمها فكانت تبكى بكاء الفرح . وأما أبوها فقد لزم الصمت لأنه لم يجد الكلمات التى تفى بشكر صهره على إحسانه المتكرر

وكان موعد العقد فى بيت والد العروس . وقد عهد بتحريره الى « دون جوليان » وكيل العقود فى القرية ، فجاء مع سكرتيره فى عربة فخمة وأعدت له فى منزل الراعى منضدة مذهبة عليها أربعة حوامل للشمع من الذهب الخالص . ودخل متكبرا مزهوا ، ومن أحق من وكلاء العقود بالكبرياء وبالزهو ؟ أليسوا هم المطلعين على أسرار القانون ؟ !

وأخذ يملى على سكرتيره صيغة العقد وهو يتلفت يمنة ويسرة ، ويرفع المنظار ثم يضعه

وفى الوقت الذى كانت صيغة العقد المدنى تملى هذه الكيفية كان القسيس مقبلاً ومعه بقية المدعوين من أصدقاء الأسرتين ورفعت هدايا العرس عن المناضد ووضعت بدلها أطباق الفاكهة والفطائر والأشربة الحلوة

وتنحنح وكيل العقود ومسح ثيابه بمنديله ووضع حفنة من الرمل فوق الكتابة ليجففها . وأخذ يتلو ما كان يمليه ، فلما وصل إلى اسم الزوج التفت إليه وأحنى رأسه فقهقه المدعوون . ولما وصل إلى اسم العروس التفت إليها وأعاد هذه الحركة فأعاد المدعوون الضحك . ولكن لما وصل وكيل العقود إلى ذكر شروط الزواج فعدد المزارع والمنازل الموهوبة والجياد والبغال علت أوجه الضاحكين منذ لحظة علائم الحسد . وكان المبتسم الوحيد هو الزوج فقد أتيحت له فرصة يظهر فيها غناه ويظهر حسن معاملته لزوجته . أما والدا العروس فلم يستطيعا منع دموع الفرح ، وكانا يتخيلان أن على كل إنسان أن يقول لهما أنتما الأبوان الوحيدان الجديران بالتهنئة فقد ائتمنتما على ابنتكما من هو جدير بأن يؤتمن

وبعد توقيع العقد أديرت المرطبات وأخذ دون جوليان يتندر فى حديثه بالطريف من القصص والفكاهات ويعرض فى سخرية غير مكشوفة بالقسيس

وفى الساعة الحادية عشرة كان كل شىء قد تم . وذهب القسيس والعمدة سوياً . وتقدم العم سانتو إلى وكيل العقود وسكرتيره يدعوهما إلى قضاء بقية الليل بمنزله

وكان الطريق بين المنزل الحقير الذى عقد فيه العقد وبين منزل العم سانتو طريقاً مظلماً ضيقاً .

وكانت الكلاب تنبح كلما دنا من بعضها فريق من العائدين . ولكن بقية القرية كانت فى سبات عميق

وكان دون جوليان ومن معه يعشون فى تؤدة ورفق حذر العثور بحجر يوقعهم فى الطريق . وكان الأول يشعر بقلق شديد من مسيره فى هذه الليلة الحالكة الظلام . وتوهم أنه رأى ما يريب فى ركن من الطريق كأن به أحداً مختفياً يتربص بالسائرين سوءاً

قال بصوت خافت : « انظروا ! انظروا ! » وقبل أن يجاب على كلمته انطلقت رصاصة من ذلك الركن ففزع واستند إلى باب منزل مغلق . وكان الرصاص لا يزال ينطلق ويصيب الحائط فشعر جوليان بأن العرق يتصبب من رأسه

أما العم سانتو فكان واقفاً فى وسط الطريق وهو يصيح : « أقسم بالله أنى أعرف من الذى فعل ذلك . إننى عرفتك أيها الكلب القذر »

ثم هز عصاه الغليظة مناديا باسم تونى وبأسماء أصهاره القدماء أقارب الزوجة المتوفاة

— ٤ —

كانت أجراس القرية تدق منذ آذنت الشمس بالشروق وكان الخبر بأن العم سانتو قد تزوج — قد وصل إلى أقاصى الاقليم . وكان الفلاحون مقبلين على ظهور الخيل والحمير ليقوموا بواجب التهنئة

كان منزل العم سانتو طول الأسبوع الماضى فى حركة مستمرة لا تعرف الهدوء ، وهو الآن مبعث ضجة شديدة ، فالضيوف مقبلون من كل حدب ، والخدم غادون رائحون بالأطعمة والأشربة ، وجزار القرية لا ينتهى من ذبح الدجاج والطيور . والعم باشكوال الخادم يبدى مثل مهارة الطبيب فى تشريح هذه الذبائح . وتاهيك بشعور هؤلاء الضيوف حين يرون هذه الضحايا وحين يعرفون أنها طعام لهم وهم الذين يقضون العام كله لا يطعمون شيئاً سوى الخبز القفار أو مأدوماً بالجبن أو اللبن

إن مثل هذه الوليمة يعد حادثاً لا يتكرر وقوعه فى تاريخ القرية ، فقد يكون بين فلاحيها من يرى الطعام وهو يطبخ ولكن ليس فيها من يرى فى وقت واحد عشرات القدور تحوى مختلف الطعوم لتقدم للضيوف بغير حساب . وليس فيهم من يرى عشرات القرب مملوءة بالنبيذ وليس على الراغب فى الشرب إلا أن يشير فيؤتى له بالخمر المعتقة التى تقهر نشوتها أكثرهم اعتياداً على السكر وإدماناً . وأما الحلوى فعد ما شئت من صنوفها المشتهاة

لقد كان كل شىء فاخراً فخماً وكان ديوميني نفسه مغتبطاً بالشراب فهو مدعوٌّ وفى الحفل شراب يكفى فكيف لا يابى

وكانت الأجراس لا تزال تدق ، وآن موعد الموكب فسار ، وكان النساء فى الثياب البيضاء ، والرجال فى المعاطف السوداء ، وبين السائرين ديوميني ورأسه الى الوراء وأنفه متجه نحو السماء . وعلى رأس العريس قبعة جديدة من القطيفة ، وسترته ضيقة عند خصره النحيل ، وبجانبه ماريتا وما أجمل تلك العروس وما أرشق ! إن أية عروس من أرقى البيوت لا تستطيع أن تظهر فى حفلة عرسها بمظهر أجمل وأروع مما ظهرت فيه بنت ذلك الراعى الفقير

كان على لبتها عقد من اللؤلؤ كعقود الأميرات ، وعلى كتفيها طيلسان من أغلى الحرير وفى أذنيها

قرطان كانت الزوجة الأولى تقصر تحليها بهما على الحفلات النادرة

واتجه الموكب فى اتجاه الكنيسة وكان كل أهل القرية ينتظرون عند بابها ، وكان بينهم بعض أقارب الزوجة الأولى ، وقد استخفهم الفضول فنقضوا العهد الذى كانوا قد قطعوه على أنفسهم بأن يقاطعوا هذه الحفلة

ولكن لما مر العم سانتو أمامهم صاحوا منادين إياه بكلمة اللص ، فلم يجبهم بأكثر من ابتسامة دلت على نهاية الرضى والاقتناع

ودخل ديوميني الكنيسة والناس ينظرون اليه ويتغامزون ، وبعضهم يتهامس باسم صديقه تونى

ولاحظت العروس تونى جالساً فى الحانة التى أمام الكنيسة فأحنت رأسها واصفر لونها ولاحظه أيضاً العم سانتو فابتسم ابتسامة المنتصر فأجاب تونى على هذه الابتسامة بحركة دالة على الاحتقار ، وآلم العروس أيما ألم أن توجه اليها هذه الحركة فى يوم عرسها

وعاد الموكب من الكنيسة فدخل مئات من المدعوين إلى القاعة التى صفت بها مقاعد تحمل أطباق الشكولاته والحلوى ، ولكن الضيوف لم يتناولوا منها إلا القليل خشية من الشبع ، ولم يبق على موعد العشاء غير ساعة واحدة

وظهر ديوميني وفى يده قيثارة يعزف عليها ويصدح بالغناء ، وأقبل القسيس فجلس أمام المنضدة وهو يقول : « إن الشيطان نفسه لا يولم وليمة أبدع من هذه »

وجلس ديوميني أيضاً إلى المائدة ، ولكنه لم يمد يده الى الطعام اكتفاء بالنبيذ الذى يشرب منه أمام سائر المدعوين ، فكانت أعينهم لا تتحول عن الدجاج . ولأول مرة تناولوا الطعام كما يتناوله السادة ، فأمام كل منهم طبقه الخاص وزجاجته ، وعلى صدره فوطته أيضاً

وكانت ماريتا جالسة بجانب زوجها وهى تأكل مفقودة الشهية ، ووجهها شاحب وقد بدت عليه علائم الألم واضطراب الأعصاب ، وهى تنظر نحو الباب كأنها تتوقع أن يدخل تونى بين لحظة ولحظة ، وقد كان هذا الوغد جديرا بأن يقدم على أى أمر

وكانت تتذكر فى ألم شديد وداعها إياه فى المرة الأخيرة ، وتتذكر قوله لها إن أنانيتها ستنقلب عليها فى يوم ما فتهجره وتتزوج من أجل المال

لكنها الآن على رغم خوفها منه كانت مسرورة من توقعها أنه سيثار وأنه سيعمل ماتوحى به الغيرة ، وكان موضع سرورها من هذا التوقع أنه يدل على حبه إياها . وكان يسرها أن تكون محبوبة منه ؛ وإن فقدته فقدان الأبد

وقل ما بقى فى الأطباق من طعام ، وضمفت الشهيات ، وبدأ التندر بالفكاهات والأحاديث ، وتناول بعض من اشتد بهم السكر العروسين بالفكاهة والمزاح ؛ فتضاعفت من أجل ذلك الضحكات ، وفى النهاية وقفت ماريتا وتناولت طبقاً ودارت به على المدعوين تطلب منهم (النقوط) وسرعان ما امتلأ طبقها بالنقود الذهبية التى كانت تنهال على الطبق ، خصوصاً من أقارب العريس الذين يطمعون أن يتذكرهم عندما يكتب الوصية

ولم يدفع القسيس غير قرش واحد ، معتذراً بأن الكنيسة لم تعد تملك شيئاً فى هذه الأيام التى سادت فيها الحرية

ولما انتهت العروس من طوافها على الضيوف ، ألقت بالمال الذى جمعته فى جيبها ، وقد أطربها رنينه

وأصبحت الوليمة الآن وليمة كما ينبغى أن تكون الولائم ، فالجميع يتكلمون فى وقت واحد ، ثم نهض أحد المدعوين ورمى زجاجته على الأرض فتحطمت ، وكان ذلك دعوة منه للجميع باحتذاء حذوه ، فألقيت كل الزجاجات والأطباق على الأرض

وأراد أشدهم سكراً أن يبالغ فى المزاح ، دلالة على شدة السرور ، فأخذوا يقذفون العريس بقطع من الخزف المكسور ، وسرت العدوى بين الجميع فصاح العم سانتو : « كفوا عن هذا ! كفوا ! » ، ولكنهم كانوا من القسوة فى مثل حالة المجانين ، فاستمروا واستمر يحذرهم حتى استحال صياحه إلى زمجرة ، وحتى هرع النساء اللواتى كن انسحبن بعد جمع النقوط ليرين ما الخبر

وأخيراً عاد الهدوء ، عدا أن الصبيان الذين كانوا فى الطريق تمكنوا من الدخول عن طريق النوافذ وأخذوا يجمعون ما تساقط على الأرض من الطعام الذى فى بقايا الأوانى المحطمة . وأخذوا يقرصون أرجل السيدات ، فصحن ، وتذمر العم سانتو فأمر بطرد الصبيان وأبدى لأول مرة تذمره من هذه الليلة

— ٥ —

فى نحو الساعة العاشرة عاد المدعوون الذين جاءوا من قرى أخرى وهم يغنون ويدعون للزوجين بالسعادة . وعلى أثر ذلك عاد المدعوون من المدينة فى الأزقة المظلمة وكان وكيل العقود نائماً منذ ساعة فى ركن من الغرفة فأيقظه سكرتيره ولم يبق فى المنزل غير أقارب العروسين

وأخيراً صاحت أم العروس بابنتها : «وداعاً» ولقد يخال من يسمع صوتها إذ ذاك أنها تودع راحلاً إلى القبر . وأما أبو العروس فكان لا يزال فى مرحه وسروره وقال لزوجته : « إنك لم تكونى على مثل هذا الحزن عند ما خرجنا من المنزل ، فلماذا هذه الكآبة ؟ » ثم فرق بينها وبين ابنتها وقادها نحو الباب

وذهب كل الخدم الى حجراتهم وجلس العم سانتو وماريتا فى الغرفة المختلة النظام التى كانت فيها الوليمة والتى لا تزال بها الشموع الموقدة . وظلا صامتين مدة طويلة ، ثم أخذ العم سانتو يباهى بانتصاره ثم يثنى على ثياب العروس

أما العروس فكانت تصغى وكأنها تمثال ، ولكنها لا تفكر فيما تسمع بل فى تونى رفيق صباها

ودقت الساعة فقال العم سانتو : « الساعة الحادية عشرة » ثم نهض وقال : «هذا وقت النوم»

ومشيا نحو غرفة النوم ولكن العم سانتو ما كاد يصل إلى بابها حتى وقف فجأة لأنه سمع أصواتاً غريبة عن بعد تشبه الدق بمئات من المعصى على الصفيح

واقترب الصوت ، وسمع وقع أقدام وعلت ضحكات وسمع غناء ويوميئى فى وسط هذه الأصوات وصاح العم سانتو بصوته المنكر : « عرفتكم يا خنازير » ثم أخذ يضرب الهواء بقبضة يده وليس فى المكان من يرى هذا التهديد غير زوجته

ولكن بعد لحظة ظهر فى المكان نحو عشرين شخصاً على رأسهم تونى وأقارب الزوجة السالفة ومن بينهم ديوميني الذى كان طول يوميه يتمتع بضيافة العم سانتو ويطرب المدعوين بالعزف على قيثارته . وشعر للعم سانتو بالواجب الذى توحى به العزة والكرامة . أليس هو أهم رجل فى المدينة ؟ أليس هو الذى اعتاد أن يأمر فيطاع ؟ فكيف إذن يكون منزله ميداناً لهذه السخرية ؟ أمن أجل أنه تزوج من فتاة صغيرة ؟

وأخذ الجميع ينشدون لحناً محزناً كأنهم فى جنازة وصوب تونى إلى رأس العم سانتو عصاه وضربه بها ، فتقهقر الرجل فى ذلة ، واستطاع والدم يسيل من جراحه أن يدخل الحجرة فيتناول بندقيته ويطلق منها رصاصة فى الهواء . فامتلأت الغرفة بالدخان وبرائحة البارود ، ووقعت ماريينا على الأرض وهى فى حالة إغماء وخرج المتظاهرون كما جاءوا

وبعد قليل سمع طارق على الباب ومناد يصيح : « افتحوا باسم القانون ! »

وتثاقل العم سانتو فى مشيته وفتح الباب ، فرأى الجندى ورأى أمام الباب جثة مخضبة بالدم ، هى جثة تونى ، وكان المتظاهرون قد أبلغوا البوليس أن العم سانتو هو الذى قتله ، وذلك بعد أن رأوه قد انتحر . فقاد رجل البوليس العم سانتو الى المحاكمة وهو يصيح : « يا لها من ليلة عرس ! »

عبد اللطيف النشار

شركة بيع المصنوعات المصرية

تعمل على احياء الصناعة المصرية وترويجها

معرض دائم لمنتجات البلاد

تعرض المنسوجات الصيفية

من جميع الأنواع : قطن — حرير — كتان

بضائع جديدة لهذا الموسم

صنع شركات بنك مصر

التى أجمع الكل على متانتها وتفوقها

شاهدوا مبتكرات الصناعة الحديثة قبل شراء حاجاتكم

خيانة في رسائل

بقلم الأديب نجيب محفوظ

« هذه أول أزمة تصيب حبنا ! نعم طالما آلمنى الفراق الهين ، وأجهدنى الشوق إلى اللقاء ، وعذبنى الدلال ؛ أما الوداع ، أما الرحيل إلى قنا ، فهذا أمر جديد ، يدفع إلى نفسى شعورا بالحزن لا عهد لها به ، فهلا عدلت عن هذا السفر . . . ؟ »

« لو كان الأمر الىّ ما رغبت نفسى أدنى رغبة فى السفر ، فما أحفل بقضاء الشتاء فى أعالى الصعيد بعض احتفالى بالقرب منك كيما أواصل هذا اللقاء السعيد ؛ ولكن ما حياتى وهذا ما يريده أبى ويفعله منذ أحيل الى المعاش . ولقد اعتاد أن يمضى شهراً أو شهرين من الشتاء فى قنا عند عمى الدكتور . . »

« يستطيع عقلى أن يتصور المعجزات ، ولكن لا أستطيع أن أتصور ما عسى أن تكون عليه حياتى هذين الشهرين ، فهذا الحب غدا حياة لشعورى ، وهذا اللقاء أمسى ألفة لنفسى ، أجد فيها راحة بعد تعب ، وعزاء عن شوق دائم ، فما عسى أن أصنع . . . بل ما يكون زادى وسلوتى . . . ؟ »

فوضعت يدا خمرية ناعمة على كتفه ، وداعبت بأطراف أناملها خده ، وهمست فى أذنه :

« هذا شعورى وهذا حزنى ، ولولا كراهيتى للعزاء لنصحت لك بالتعزى والتناهى ، فليس أمامنا سوى الصبر الجميل حتى ينطوى دهر الفراق ويتصل حبل اللقاء . . . ومع هذا فما أسعدك وما أبأسنى . . ! »

« كيف . . . ؟ »

« لن أسعد بقراءة كلمة لك طوال مدة غيابى ، لأنك لا تستطيع أن تكتب إلىّ ، أما أنت فتستطيع أن تطلع على همسات روحى كلما مكنتنى الفرص من اختلاس الكتابة اليك . . . . فأينا أسعد حظا . . . ؟ »

« من تؤاتيه فرص التعبير فيخفف عن مراجل عاطفته »

وهنا ظللت وجهه سحابة كدر ، وسألها بعد تردد :

« هل لك أبناء عم ؟ . . . »

فابتسمت ابتسامة دلت على أنها سرت للقلق الذى بعث هذا السؤال وأجابته :

« نعم لى . . . . ولكنهم لم يجاوزوا عهد الطفولة ، ولو كان الأمر كما تتوهم ما أوجب أدنى خوف أيها الرعديد الغيور . . . والآن هات فلك أودعك . . . وهيا نقول معاً هذه الكلمة الروعة التى تفزع لها القلوب :

« أستودعك الله . . . »

من الغد يصبح له فى قنا حبيبان عزيزان : حبيبة القلب عائدة ، وصديق الصبا وزميل عهد الدراسة الأستاذ أحمد مرزوق المدرس بمدرسة قنا ، ولكنه بينما يتصل بصديقه بالكتابة فهو محروم بحكم الظروف من تمام هذا الاتصال الروحى بحبيبته ، لأن حبهما ما يزال سرا خفيا لما يدر بأمره الأهل . . .

وانقضت أربعة أيام على سفر عائدة ، ثم وصله

منها كتاب جاء فيه :

« حبيبي حسنى !

أعجب لهذه الوحشة كيف تجثم على صدرى وأنت معى . . . نعم أنت معى لم تفارقنى لحظة سواء فى ضجيج النهار أو فى سكون الليل ؛ معى وأنا أرسل الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدة وأشجار النخيل المبعثرة ؛ معى وأنا بين أهل عمى أتلقى الأحاديث وأرد عليها ، وأضاحك هذا وأسمع لذاك ؛ معى فى كل مكان وكل حين ، فلا عجب لنفسى بعد ذلك أن هزها الحنين اليك أو استشعرت وحشة وضيقا فى البعد عنك ، أو ألهبها الشوق عذاباً وجوى

وأرجو ألا تتهمنى بالتكاسل عن الكتابة إليك فبيت عمى عامر بالأطفال وهم لا يتركوننى لحظة أخلو الى نفسى ؛ وقد انبعثت كلمات هذا الكتاب من شعورى وامتلأ بها عقلى وتمثلت فى حواسى وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تؤاتينى الفرص فأسطرها لك خلسة على ضوء القمر المتسلل من نافذة حجرتى والعيون قد أغمضها عنى المنام ... فاعذرنى إن تأخرت عنك رسائلى وارجع إن شئت إلى قلبك فاعتقادى أنه يملى عليك عن لسانى ما أحب أن أقوله لك دائماً

أما عن قنا فجوها دافئ جميل ، وخلا ذلك فنحن فى منفى ، ولولا ما يربحه أبى فيها من صحة وعافية ما تركته يسكن اليها لحظة من الزمان »

فأخذ من الكتاب كل ما استطاع أن يمنحه من العزاء والسلوة والسعادة

وكان صديقه مرزوق لا ينقطع عن مراسلته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدة ، فهى التحيات المحفوظة وبث الأشواق والتلهف على إدبار العام الدراسى وإقبال العطلة الصيفية ، إلا أنه أضاف الى هذه المحفوظات فى آخر كتاب له مانصه :

« طالما قلت لك إنى أعيش فى قنا كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمنا حواء ، لا يقع بصرى على وجه امرأة قط ، وإن كنت أرى أحياناً بعض الأصدقاء يشيرون إلى كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسمعهم يقولون : انظر الى هذه المرأة ... ولكن وقع بالأمس ما يعد حدثاً تاريخياً فى حياة قنا ، إذ حضر الدكتور سامى حسنى مفتش الصحة الى البستان العمومى وفى صحبته غادة جميلة سافرة الوجه ، فهز البلد وزلزل كيانها . إنه رجل جسور لا يعبأ بآراء المتزمتين ، وتجده دائماً على استعداد للرد على تطفل المتطفلين بما يجعله مثلاً وعبرة ، ولم يلبث أن شاع الخبر وملأ الأسماع فهرع الشبان الموظفون من مدرسين ومهندسين وكتبة الى البستان وهم يسوون أربطة الرقبة ويحكمون أوضاع الطربوش على رؤوسهم ، فلو رأيت البستان حين ذاك لحسبته حديقة غناء فى مصر الجديدة أو قصر النيل

إنها شابة جميلة تحمل فى طياتها عطر القاهرة العبق ، فليهنأ قفر قنا بهذا القطر العذب ... »

فخفق قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شك فى معرفة صاحبة الشخصية الجميلة التى أثارت لوعة الشباب فى قنا

يا له من كلام يحمل فرحاً وألماً والألم فيه أكثر ! أيجوز أن تسعد قنا ومن فيها بحبيبته ويبقى هو فى القاهرة تسيل نفسه حسرات عليها ..

وهم أن يكتب لصديقه كتاباً يعلنه فيه بأن الفتاة التى هز مقدمها قنا هى حبيبته اليوم ، ثم خطيبته وزوجه غدا ، ولكنه جفل من هذا

الاعلان ووجد رغبة خفية أن يكتمه إياه وأن يطلب منه أن يوافيه بأخبارها التي تستحق الرواية والحديث

لقد تردد لحظة وطرح على نفسه هذا السؤال : ألا يعد هذا تجسساً منه على حبيبته ؟

وهل يجوز هذا في شرع المحبين ؟ . . أو ليس الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبته موضع الاتهام والظنة ؟ . .

ولكن عاطفة الندم هذه لم تستطع أن تقهر عواطف قلبه الجياشة السوداء فطردها من نفسه وكتب الى صديقه بما أملت عليه شكوكه من بادئ الأمر

وبعد حين وصله كتاب ثان من صديقه جاء فيه عن عائدة ما يلي :

« تغير كل شيء في قنا وكل شيء في حياتي . لم تعد قنا قبراً موحشاً فاغراً فاه مكشراً عن أنيابه ؛ ولم تعد حياتي سأماً ثقيلا متصلا . كيف لا يكون هذا وأنا مطمئن إلى أني سأحظى أصيل كل يوم برؤية ذلك الوجه السافر المبتسم الذي يحيى موات النفوس ، ويبعث مصفر الأمل . . . ما أجملها ، وما أعذبها . . .

علمت الآن أنها ابنة أخي مفتش الصحة ، أو هـذا ما علمته قنا عامة وعلمه شبابها خاصة . إن جميع العيون تلتهمها التهام الجوع ، فلعل هذه الضجة تثير الغيرة في نفوس الآباء الموظفين ، فتشجعهم على الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه ، وإبراز بناتهم للعيان ، ومهمـا يكن من الأمر فنحن الرابحون

لا تخش على أخيك من قهر ، فهو بطل صنديد وشخصية لا يشق لها غبار ، وإن عيني لتنفذان من بين العيون جميعاً وتجذبان عينيها إلي ، فصبراً ولتعلمن بعد حين في أي مخبأ من مخابئ القدر كانت تنتظره هذه المفاجآت ! . . »

ما هذا الذي يقول مرزوق من أن عينيه تجذبان إليه عينيها ؟ . إن لعيني مرزوق أن تجذبا كيف تشاءان . أما عينا صاحبته فما بالها تنجذبان وتستجيبان ؟ . . . هلا يكون ذلك مجرد نظر برىء فسره صديقه على ما يهوى غروره ويحب ؟ . . .

إنه لا يشك أبداً في إخلاص عائدة ، ولكن ينبغي ألا ينسى أن لصاحبه عينين جبارتين يحس الناظر إليهما سخونة في أعصابه ولذعة في قلبه ، وهو — إلى ذلك — مدرس محترم من حملة الدبلومات العالية ، ومن ذوي المستقبل السعيد . أما هو فلم يزد على أن يكون موظفاً صغيراً ، كل مؤهلاته شهادة البكالوريا ، ومستقبله مظلم محدود ، أفلا يكون لجميع هذه الفوارق أثر في الحب ؟ . .

إنه يشعر بحزن عميق يخيم على نفسه فيجماها من الكآبة كنفس هرم متشائم ، ويحس بسم الغيرة ينطلق من قلبه ويلوث دمه . . . أواه . . . إن أحلامه وآماله تترجح على كف رجيم . . .

وفي ذلك الوقت أتاه كتاب من عائدة ، فانكب عليه بلهفة ، وتلاه مرة بعد أخرى ، ولم يكن يخرج في معناه عن رسالتها الأولى ، فتزعزعت شكوكه ، وعاودته الثقة ، وذاق بعض الطمأنينة والشفاء ، وحمل غرور صديقه إثم ما جنى عليه كتابه من الشك والعذاب ، ولكنه تسلم رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع ، جاء فيها :

« كن على يقين من أن العاطفة النامية لم تعد قاصرة على جانب واحد ، فعينا الفتاة — واسمها عائدة — تفتحان الحاضرين من الشبان وتستقران علي أنا . إني أطالع في وجهها عند حضوري سيما

الشوق والتطلع تحاول أن تخفيها بعدم اكتراث مفتعل ، وأقرأ فى عينيها استجابات خفيفة لرسائلى الصامتة الملتهبة ، وأستشف أحياناً على فمها ابتسامات خفيفة ، ولعلها تخاطب عمها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهى تعنينى .. لا تدهش لأقوالى هذه فانى أطاردها فى إصرار ، وأتتبعها فى عناء ، وأخاطبها بصوت مكتوم تنبئ عنه شفتاى المتحركتان ، وأبعث إليها باشارات الشكوى والرجاء ، وقد اقتربت منى مرة وهى تلاعب طفلا من أبناء عمها وسمعتها تقول له أو لى إن شئت : « دائماً فى أعقابى ، فماذا تصنع لو رجعت الى مصر ؟ ... » . فقلت لها بهمس مسموع : « لعلك لا تعودين ... » ، إنها كلمة ذات مغزى خاص إذا قالها شاب أعزب موظف مثلى . وقد كان لها الأثر الجميل . والآن أفتنى فانك خبير طبيب عالم بأحوالى ، هل أقدم أم حسبى ما ذقت من لذة بريئة وأولى ظهرى وداً لن ينتهى بالتئام .. ؟ إن ثمرة الحب ناضجة دانية تنتظر من يقطفها فما رأيك ؟ ... »

يا للظلام ... يا للألم الساخر ... عبثاً يحاول دفع هذه الآيات بالشك والتكذيب ، فمائدة بلا ريب هى التى لا تستطيع مقاومة الشوق بالتستر وعدم الاكتراث المفتعل ، وهى التى تحادث الغير وتعنى المجدود من الرجال ، وهى التى تجيب عيناها الاجابات الخفية ... وهى تسكرها سيرة الزواج

فيا للظلام ويا للخيبة القاتلة ... والأدهى أنه يريد منه أن يكون مستشاراً فى مأساة قلبه ... ولعله يرجو أن يشير بما يقطع خيط العنكبوت الذى يمسك بكفة أحلامه وسعادته .. فيالالسخرية ! من المستطاع أن يحاول انقاذ سعادته فيمان صديقه بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدى شهامته وما يعهد فيه من الاخلاص والمروءة ، ولكن كبرياءه تأبى عليه أن يكون فى حبه من المسترحمين السائلين ، وهو يندفع برغبة جنونية نحو جحيم العذاب كأنما غدا يستطيب النار الموقدة ؛ وأبى إلا أن يعرض حبه لأقسى امتحان . فاما إلى نعيم الطمأنينة ، وإما إلى أهوال العذاب ، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه :

« إذا كانت ثمرة الحب ناضجة فاقطفها بلا تردد ، فان حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حب ناضجة يزهد فيها الانسان ، أقدم ولا تبال بالنتائج البعيدة ، وتمتع بالحب فى منفى قنا ولا تحمان نفسك هموم التفكير فى الغد ، ولا تغفل عن تزويدى بكل جديد فانى أصبحت من تتبع حبك على حب شديد »

وانتظر رد صاحبه بصبر نافذ وجزع لجوج ، حتى وافاه منه كتاب جاء فيه عن عائدة ما يلى :

« بوركت من حكيم سديد الرأى ! لقد اتبعت نصحك أيها الأخ ، وضربت لها موعداً مساء ، ووافيت إليه فى صباح اليوم الثانى وأنا حائر بين الشك واليقين ، بين اليأس والأمل ؛ ولكن لشد ما كان فرحى عند ما رأيتها قادمة ! والحقيقة أنها كانت مترددة مذعورة على رغم خلو المكان الذى يوحى بالطمأنينة فى خفية عن أعين الرقباء ، وبلغ بها الذعر أنها صرت بى غير ملتفتة إلى يدى الممتدة كأنها جاءت لغير موعدى ، فتبعتها وحييتها وطمأنتها حتى قالت لى مضطربة :

« لا أدرى كيف جئت .. كيف أطعتك .. إننى مضطربة ... » فهدأت خاطرها وسكنت اضطرابها ولاطفتها بما أوتيت من بيان وسحر وحماس حتى أفرخ روعها واطمأنت

لقد تحدثنا طويلاً ، بل طويلاً جداً ، ولو أردت أن أسطر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتنى الأسطر ؛ فحسبك أن تعلم أنها فتاة جميلة رشيقة حلوة المعشر ، مهذبة الطباع ، وإن كانت تغلب عليها حدة الاحساس وتوقد العاطفة والذهاب مع الخيال . وقد حامت عمارة حول موضوع الزواج فجاريتها بخفة ولباقة لا تهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلوان بها إلى عقد الميثاق ، وعند الافتراق تناولت منها قبلة شهية خلت لحلاوة جدتها أنها أول قبلة تنالها شفتاى ... »

انتهى الأمر ، وتبددت الأحلام ، وخابت الآمال وقضت على قلبه الذى انتهى طويلاً بأفراح الحب أن يتجرع آلام اليأس والخيبة

وانقطعت عنه رسائلها ولكنه كان على علم متصل بأحوالها من رسائل صديقه التى جاءته تترى

وقد كتب اليه فى إحداها :

« أنا — باختصار — سعيد جداً ، فحياتى مليئة بالبهجة والمسرة ، وعائدة خير عزاء عن الوحدة والوحشة فى هذا المنفى السحيق ، وإنى كلما أذكرأنى سأحرم هذه المتعة بعد شهر يشيب شعرى من الهول ، وأضمها إلى صدرى بشغف ، وألتهم منها قبلات ملتهبة كأنى أختزن منها ما أعود إليه عند الفراق . أما هى فتعتقد أنها لن تعود إلى القاهرة أو أنها تعود لكى ترجع إلىّ إلى الأبد ، فمن يدريها أن لى خطيبة تنتظرنى فى القاهرة من سنوات طويلة ...

وبهذه المناسبة أقول لك إن عائدة من اللاتى وهبهن الله دلالاً وفتنة ، ولكنها على قدر غير هين من الاستهتار والنزق ؛ أما خطيبتى فشابة حيية هادئة الطبع وعلى خلق عظيم ، وإنى أدخرها للزواج وأنا سعيد »

وكتب إليه فى رسالة أخرى :

« معذرة أيها الصديق عن تأخير غير مقصود ؛ والحق ماذا أقول لك ؟.. فالحياة الجميلة هى هى . . ، لقاء فأحاديث ، فمداعبات فتقبيل وعناق ، فوداع ولقاء . إنها غدت مجنونة بى ، وكلما مرت ساعة اشتد بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها : أن اذهب إلى والدى وخاطبه فى حبنا لأكون لك طول العمر

إنها أمنية طبيعية ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . . »

ثم كتب إليه بعد حين :

« قومت الألفة تلثم الحياء وصيرت التلميح تصريحاً وأمست عائدة تلح على أن أكلم أباها لتتخذ علاقتنا الصبغة الشرعية المقدسة ، وكانت حياتى تكون السعادة نفسها لولا هذه المنغصات

والحق أنى أجد بين يديها سعادة صافية جعلتنى شديد العطف عليها ، وبعثت فى الضمير ألما مبرحاً . وإنه ليسوءنى ما أبيت لها من نية الغدر والهجر لأنى فى الحقيقة لم أر فيها أكثر من ملهاة ممتعة أسكن إليها فى هذا المنفى القصى . وما أشبه غرامى هذا بغرام الرحالة الجواب تتعدد وعوده تعدد ما يجوبه من البلدان . وما يثير النفس يا صديقى أنى — أول أمس على أثر عودتى من لقائها — جلست إلى مكتبى شارداً أقلب بعض الكتب فما راعنى إلا ديوان شوقى تنشق صفحاته عن صورة حفظتها فيه وكدت أنساها ، هى صورة خطيبتى بوجهها الصبيح الجميل وقد سطر على ظهرها بخط جميل « تذكار الوفاء » فكأنه سوط عذاب ألهبنى ناراً ، ألا فليغفر الله ما تقدم من ذنبى وما تأخر أيتها الحبيبة ! والحق لقد اضطرب فؤادى وألقيت على الصورة نظرة ذعر سريعة ثم أخفيتها عن عينى أو أخفيت عينى عنها لأنه وقع فى نفسى أنها تعلم بخيبتى

وأنها تصوب نحوى نظرة لا تعيش أمامها الخيانة »

وكتب إليه فى رسالة أخرى يقول :

« لست فتى عصريا كما كنت أعتقد ، ولو أنى كنت كذلك لما هالنى الغدر ولا كبرت على نفسى الخيانة ولسهل على اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيات الصباح والمساء ، ولهذا تجدنى معذبا موزع القلب فلا أنا بالراضى على نفسى لأنى نكثت ميثاق خطيبتى ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حب عائدة التى رمانى تفانيها فى هاوية من الندم

ولا يخفى عليك أن الملل عرف طريقه إلى نفسى وأنى بت منه فى سقام ؛ وقد كان ذلك مقدوراً ولكن ما الذى عجل به ؟.. لعله ذكرى خطيبتى ، أو لعله أنى أقبلت على عائدة إقبال منهوم جائع فامتصصت حلاوتها فى رشفة ، أو ربما كان ذلك لأن جمالها طلاء لا يخفى من ورائه شخصية ذات بهاء وجلال »

ثم كتب :

« أمسى اللقاء غير ذى متعة ، لأنى من ناحية بت أعانى من السأم وارهاق الضمير ، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصر على مخاطبتى فى شأن الزواج ولا تكاد تصبر عن هذا الموضوع فرمت بى فى الحرج والحيرة ، وينتهى موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرب المفضوحين »

وأخيراً كتب إليه يقول :

« لأول مرة أخاف الميعاد ، وإنى لأعذر نفسى وأغبطها ، وأرجو أن تفهم الفتاة أن هذا منى اعلان بالقطيعة ، ولم يكن من هذا بد بعد أن بلغنا فى علاقتنا موضعاً ينبغى أن يتقرر فيه المصير ، فاما إلى يمين وإما إلى شمال ، وما كان ينبغى لى أن أختار من جديد ، وما أحببت ذلك قط فان خطيبتى تنتظر أوبتى بفارغ الصبر وهى أكرم على نفسى من هذه الفتاة التافهة الثرثارة التى لم يميزها الله إلا بمظاهر الجمال المبتذل لا يلبث أن يتبخر أثره فى الهواء . ومهما يكن من الأمر فان ينقضى أسبوع حتى تكون الآنسة عائدة فى طريقها إلى حيث ألقت »

* * *

قرأ جميع هذه الرسائل — رسائل صديقه وقاتله — بامعان شديد

وكانت تتسلط على نفسه فى ذلك الوقت عاطفتان : عاطفة حزن عميق وشعور حاد بالخيبة والغيرة وانهيار الأمل جعلته لا يذوق لذة فى اليقظة ولا راحة فى السهاد ، وعاطفة تشف وانتقام أن تنتهى بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهيار صرح سعادة . . .

ولم يفرط فى واحدة من هذه الرسائل التى سجلت تاريخ أكبر هزة عنيفة امتحن بها شبابه فجمعها فى رزمة وحفظها فى حق عاجى جميل ووضعها فى مكان أمين وانتظر . . .

جاءته رسالة مقتضبة من عائدة نفسها تعلنه بقدومها وترجو أن يذهب للقائها فى موعدها المعهود عند العصر . . .

وفكر فى أمره طويلاً ، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريحة حتى انتهى من أمره إلى تدبير ، فذهب إلى الموعد فى الساعة المعهودة ، ولم ينتظر هذه المرة لأنه وجدها فى انتظاره ، واستقبلته بيدين مفتوحتين وابتسامة مشرقة ، فضمها بين ذراعيه والثم شفتيها وهو يبتسم ابتسامة كلفته غاليا من الجهد وضبط النفس

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان فى الأيام الخوالى السعيدة ، وسمعها تقول بفرح فائض :

« وأخيراً »

فردد قولها : « وأخيراً » ثم نظر إليها بعينين مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه : يا عجبا ! ما أقدركن أيتها النساء على إخفاء مشاعركن وتكلف ما ليس بكن !

وانطلقت هي تقول :

« أستطيع أن أخبرك كم ثانية غبتها عني طوال هذه المدة الثقيلة لا أرجعها الله »

« الذي يبدو لي أن استغراقك في حساب الزمن شغلك عن الكتابة إليّ »

« أتسخر مني ... آه لو تعلم كم كانت تكلفني الرسالة أكتبها إليك .. كنت أتسلل إلى مكان قصي بالبيت كي أخفي نفسي عن أعين أبناء عمي ... فيجدون في أثري ويبددون عزلتي ويفزعون أخيلتي المنسجمة وعواطفي الحائرة ، فإذا انتهيت منها احترت كيف أسلمها إلى صندوق البريد »

« ألم يكن الخروج هيناً عليك ... »

« أحياناً مع عمي »

« لم لم تخرجي في الصباح وعمك في عمله والجو خال ؟.. »

« لو فعلت لكان أمراً مثيراً ... والشبان هناك جائعون أراذل عديمو الشرف ... »

« يا سلام ... ! »

« نعم يا عزيزي ... »

فهز كتفيه وقال وهو ينعم فيها النظر :

« أرى عذرهم بيننا ... فمن يطالع هذا الوجه الجميل ولا يقهر على الحب قلبه ؟ ولكن ماذا صنعوا معك حتى استحقوا عندك هذا الحكم القاسي ؟ »

فصمتت لحظة ثم قالت :

« إنها صغائر مألوفة لا يبي عنها الشبان ... ولكنها ليست بذي بال ... فلندع هذا الآن .. فاعتقادي أنه لدينا ما يلذ لنا حديثه أكثر من هذا ... »

« طبعاً .. طبعاً .. ولكن واأسفاه قد قدر علي أن أحرم هذه اللذة الليلة .. لأن أمي مريضة وينبغي أن أكون الى جانبها سريعاً فلنؤجل هذا الحديث الممتع الى المرة القادمة

فنظرت إليه قلقة وسألت :

« مالك ؟ لست كعهدي بك ! تقول إن أمك مريضة ؟ لا بأس عليها .. أمضطر أنت الى الذهاب اليها حالاً ؟ »

إنه يحس برغبة شديدة تدفعه الى الانفجار لينفس عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقده المدفون ، ويود لو يجبه هذا الرياء بما يمزق قناعه ويهتك ستره ويفضح شناعته ، ولو فعل ما جنى على الرحمة والعدالة ، فمن حقه أن يصب جام غضبه ويثأر لآلام قلبه ويمحق الخيانة والمكر السيئ

ولكنه كان قد انتهى من أمره إلى مرفأ لا يريم عنه ، وكان بطبعه هادئا رزينا كتوماً يبذ فيه العقل الهوى وتتغلب لديه الحكمة على الثورة ، فغالب دواعي الغضب في نفسه حتى أسكنها وقال بهدوء غريب :

« إني تعب مهموم مكدود الذهن ، ولولا شدة توقي لرؤيتك ، ما هان عليّ أن أغادر أمي ، وهي طريحة الفراش ... فلنفرغ من هذا اللقاء ولو على مضض ... والآن اسمحي لي أن أقدم إليك هدية جميلة : هذا الحق العاجي ... ورجائي ألا تمسيه إلا حين خلوتك إلى نفسك في غرفتك لتحظى بالمفاجأة السعيدة في غيبة عن أعين الرقباء ... وإلى اللقاء القريب أيتها الحبيبة ...

نجيب محفوظ

ليسانسيه آداب — القاهرة

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

٢١ اكتوبر ...

ما كدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على مكتبي حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم فى دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض ، وهى تتهمه بسمها للتخلص من النفقة الشرعية . كلام معقول . ومسألة تستدعى التحقيق من غير شك . ولكنى من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم . وما فيها من «قرف» خصوصاً على الصبح . وأعلم أنى سأنقل فأجد امرأة عائمة فى بركة من القيء والبراز . وكلما وجهت إليها سؤالاً تلقيت جواباً لا من الكلمات بل من الـ ... أعوذ بالله ! ولم أتمالك وأخرجت منديلى وبصقت فيه . وجعلت أفكر فى إحالة هذه القضية على المساعد . وطلبته بالفعل فحضر فلمحته الاشارة ، فمر عليها بنظرة سريعة وصاح :

— تسمم ! وأنا عمرى حققت قضايا تسمم أو حتى حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر معقول . خصوصاً التسمم . حتى أنا القديم المتمرن ، لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومعى « الاستمارة » المنصوص عنها فى تعليمات النائب العمومى . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لابد من سؤالها وتلقى الجواب عنها . وترفق صورة من هذه الأسئلة والأجوبة مع تقرير وجيز بالقطرميز الحاوى « لعينات » القيء والبراز لارسالها للتحليل . هذا مع عدم نسيان قص أظافر المتهم ، وقص جيوبه وإرسالها كذلك داخل أحراز مختومة للتحليل الكيماوى . إذ كثيراً ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيوب . وناديت كاتب التحقيق وأمرته بتهيئة اللازم للقيام وطلبت إليه الاستمارة المذكورة ألقى عليها نظرة وأتذكر مافيها . فأحضرها وأحضر معها التعليمات فقرأت ما يلى :

« فقرة ١٤١ — عند إرسال الأحراز إلى القلم الطبى الشرعى ... على النيابة أن ترسل فى آن واحد للنائب العمومى ... الاستمارة الآتية بعد استيفاء جميع الخانات بالضبط :

(١) تاريخ التبليغ عن الحادثة

(٢) اسم المصاب وعمره وجنسيته

(٣) هل كان المصاب فى صحة جيدة قبل الاصابة ؟

(٤) الأعراض التى لوحظت : كالقيء ، الاسهال الألم ، العطش ، ألم الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف ، التقلصات ، النعاس ، العرق ، التيبس حالة الحدقتين ، النبض ، التنفس !

(٥) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص فى فمه من الطعام ؟

(٦) هل حصل للمصاب تحذير أو تنميل بلسانه أو أطرافه ؟

(٧) هل حصل المصاب غيبوبة ؟

(٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالفضلات ؟

(٩) هل ظهرت الأعراض فجأة ؟

(١٠) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه هذه ؟

(١١) الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟

ملاحظة — يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم أى أنه لا يقال مثلاً بعد اليوم الثانى بثلاث ساعات أو فى يوم (الاثنين) بل يقال مثلاً ابتدأت الأعراض فى الساعة ٤ بعد ظهر يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك فى الساعة ٣ مساء أو صباحا بالضبط ... »

شىء جميل جداً !! كل هذه الأسئلة ينبغى أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت فى الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغى أن يقال مثلاً فى يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الغارق فى متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنعاس الخ الخ . باعتراف الاستمارة ... على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التى لا تحمل فى جيبها ساعة وربما لم تر فى حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت فى الساعة ٣ والدقيقة بالضبط !!!

النهاية . قمنا نصب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة . واصطحبت معى المساعد يشاهد حتى تزول حجته فى المستقبل . غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى الحاجب فقال :

— نهار باين من أوله !

وقرأت فاذا هى إخطار من المستشفى الأميرى بوفاة قمر الدولة علوان . فصحت : « مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع » . وظلبت قلماً وأشرت فى الحال على ذيل الاشارة العبارة المألوفة فى مثل هذه الحالة : « نأمر بتشريح الجثة » .

وقلت للمساعد أن يذهب هو لحضور التشريح وإفادتى بنتيجته بمجرد الفراغ منه . فمضى هو إلى المستشفى . ومضيت أنا إلى منزل المرأة التى أكلت الفطيرة ؛ وكان الأمر فعلاً كما توقعت : وجدت المرأة فى صحن الدار وحولها جاراتها لم يتركن فيما يخيل إلى آنية ولا « حلة » ولا « كرواتة » فى الحارة إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً تتلوى وتحشرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فهم منها أن يفتتح المحضر ، وتقدمت بين الأوانى المملوءة حتى دنوت من المجنى عليها وسألتها :

— اسمك وعمرك وجنسيتك ؟

فلم تجب . ولم يبد على وجهها الباهت المتقلص المضلات أنها فهمت عنى . فأعدت عليها الكرة فى شبه صياح ، فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج بشروع فى قىء جديد . وقد أسرع بعض النسوة إليها يسندن رأسها المائل بأكفهن ، وهن يتهامسن :

— أيوه يسيبها فى غلبها !

فأجبت مؤمناً على منطقهن وكأنى أخاطب نفسى :

— والله كان بودى أن أتركها فى غلبها ، لكن أعمل إيه ؟ ؟ قلم النائب العمومى فى انتظار الاستمارة والقطرميز !

وتشجعت امرأة لسنة بين النسوة وقالت لى :

— « مش ادلعدى » حضرتك طالب تعرف اسمها ؟ اسمها نبوية

— نبوية إيه ؟

— لأ ما نعرفش غير نبوية . أهى فى الحارة كنا نقول لها تعالى يا نبوية روحى يا نبوية

ولكن هذا لا يكفى . ولا بد من كتابة اسمها كاملاً . فتوسلت إلى النسوة أن يساعدننى على حملها على النطق دقيقة واحدة . فتكاثرن عليها ورفعن

رأسها الذى لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمسن فى أذنها يرجونها الكلام وإجابة البك النيابة . وبعد ساعة بالتمام حركت المصابة شفتيها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابتات على كتفيها :

— أيوه ... أيوه ردى علينا يا حبيبتى !

فأسرعت أصيح قرب أذنها وقد تصبب العرق منى :

— اسمك ؟ اسمك إيه بقى ؟ ...

فأنّت وزامت وقالت فى صوت خافت متهدج :

— اسمى ... نبوية

فكدت أشق ثيابى :

— مفهوم ! نبوية ! كويس خالص ! لكن نبوية إيه ؟ اسم « أبوك » إيه ؟ أنا فى عرض « أبوك » ! نبوية إيه ؟ ولكنى أخاطب وأتوسل إلى شبه جثة . فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها من جديد . ولزمت الصمت إلا من ذلك الأنين الخافت . وبلغ منى اليأس والضيق ، فصحت فى النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهضنها مرة أخرى ومسحن صدغيها بالماء البارد وناجينها بالكلام المذيب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملاً . ولكن بقى فى الاستمارة عشرة أسئلة ! وإذا كان ذكر الاسم على بساطته قد اقتضى هذا المجهود ، فكيف بالباقى ؟ خصوصاً السؤال الأخير : بيان الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟ مع وجوب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة ! ! أى أن هذه المرأة التى لم تخرج اسمها من بين فكيها إلا بعد أن كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة والدقيقة بالضبط التى لاحظت فيها ظهور الأعراض أول ما لاحظت ؟ شىء جميل ، أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة ؟ أليس فى عينى نظر ؟ ماذا تظن بعقلى هؤلاء النسوة إذا خالجنى طمع فى أن أتلقى من هذه الطريحة جواباً بالساعة والدقيقة عن الأعراض والفترة بين تعاطى المادة وظهور أول ... إلى آخر هذا الكلام المطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة فى صفاء وهدوء بال بعيداً عن مناظر القىء والاسهال : وأومأت إلى الكاتب أن « اقفل المحضر » وأفهمته أن المصابة لم يمكن استجوابها واكتفينا بأخذ « عينات » القىء والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم . ثم عدنا إلى دار النيابة حيث ارتميت على مقعدى تعباً أغمضت عينى قليلاً ؛ ثم فتحتها على صوت الباب يفتح وقد دخل منه مساعدى أصفر الوجه . فأفقت من خمولى فى الحال وابتدرته :

— مالك ؟

— التشريح

— آه حضرت العملية ، والنتيجة ؟ ؟

— النتيجة أنى أنا ...

وجلس على كرسى قريب ؛ فحدقت بنظرى مليا فى وجهه . ففهمت كل شىء . إن هذا الشاب قد حدث له ما حدث لى يوم حضرت لأول مرة تشريح جثة آدمية . هذا الشاب الرقيق الذى خرج بالأمس من بين الكتب ؛ تلك الكتب التى أرتنا وأفهمتنا أن الانسان شىء عظيم ، إنه هو محور الكون ، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق الأعظم ، وأنه الكائن النورانى الروحانى الذى سوف يبعث ؛ هذا الانسان لم يتح لكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل ؛ فاذا ما اطلع أحدنا على ذلك سرت فى نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج الشخص وطبيعته وثقافته ؛ وإنى لن أنسى أبداً يوم وقفت المرة الأولى على رأس جثة رجل أصيب فى دماغه بعيار نارى أطلق عن قرب فكسر

الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ ؛ وحضر الطبيب للتشريح فقمت معه أشاهد ما يفعل ؛ وغادرنا الغيط الذى وقعت فيه الحادثة ، وانتقلنا إلى دار المجنى عليه ؛ وهى دار قروية متواضعة ، وجئ بالقتيل يحمله أهله وقد لفوه فى لحاف جديد « بيوشه » ، ومن حوله النسوة بعويلهن وصياحهن وطينهن يلطخن به وجوههن وكان معى مأمور نشيط أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأتوا « بطشتين » كبيرين وضعوهما تحت « دكة » عريضة من الخشب فى صحن الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق «الدكة» وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت جديدة احتفالاً بعيد الفطر ، إذ وقعت الجريمة فى اليوم الأخير من شهر رمضان ، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحل العيد وغرته على قيد الحياة ، وحرصاً منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة فى رأس القتيل ، ورغبة منه فى أن تتغير نغمة أصوات العيد وأناشيده المتصاعدة من جوف هذه الدار ، وأعمل الطبيب المشرط حالا فى رأس القتيل وهو يملى على الكاتب :

— ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعاً)

وعندئذ علا صياح النسوة ، وكن قد تسللن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة « للمرشة » بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتاً رفيعاً حاراً مؤثراً أوجع قلبى يصيح :

— يا شجرة و « مضلاتنا » يا بويا !

وتلاه صوت آخر فى مثل وقعه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مر :

— ياللى كنت خارج بسحورك فى بطنك يابه

وتم نزع الفروة ، ووضع الطبيب أصبعه فى فتحة الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده ، وأملى الكاتب :

— جرح نارى طوله أربعة سيمتر . . .

وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع فتناول منشاراً من المعدن من حقيبته وجعل ينشر الجمجمة من الجبهة ليفتح الرأس فلم ينجح فى نشرها لصلابتها فأخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطفق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبة « سردين » وسمعت إحدى العجائز ذلك ورأت من فجوة السطح ذلك الدق و « الهبد » فى رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت كفها على خدها وقالت متنهدة :

— اسم الله عليه !

هذه الكلمة هزتنى . ووجدت لوقعها غرابة . إن تلك العجوز ما زالت تعتقد أن رجلهن هو رجلهن بشخصيته وآدميته ، أما أنا فمنذ لحظة قد بدأت أشك فى ذلك

وتم نزع الغطاء أو «القراعة» ، وظهر من تحته الغلاف الرقيق الذى فوق المخ مباشرة ، فمزقه الطبيب بمشرطه ، وجعل يفحص ما حول الجرح وهو يملى :

— تزيف دموى شديد بأنسجة المخ ...

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئا . واستمر فى البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يعثر للرصاصة على أثر . أين ذهبت إذن ؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن المقذوف خرج منها . ولما يئس الطبيب . وقال لى باسما : إن المقذوف النارى يتخذ أحياناً خطوط سير عجيبة فى جسم المصاب وأحياناً تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر عليها إلا فى الفخذ . قد يكون هذا معقولاً . ولكن رصاصة تدخل من الرأس تستخرج من القدم ! هذا شغل «حواة» ولا أصدق أن الرصاصة لها كل هذه المقدرة . واستاء الطبيب أخيراً وصاح :

— وعلى إيه ؛ آدى مخ الراجل بحاله ...

وأخرج بكلتا يديه كل ما في الجمجمة من مخ حتى أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية » النظيفة وقسم هذا المخ أقساما أربعة أعطى كلا من معاونيه قسما وكلفهم أن يبحثوا عن القذوف بحثا جيداً فجعلوا « يلفوصون » بأصابعهم في هذه المادة التي يعزى اليها كل نبوغ الانسانية ، حتى صيروها شبه سائلة كالمهلبية ؟

هذا هو مخ الانسان !

قلت ذلك همسا لنفسي : وقد بدأ الروع الذي أخذني أول الأمر يزول عني شيئا فشيئا . وتصلبت أعصابي وهمد إحساسي وتيقظ في نفسي حب الاستطلاع ؛ ورغبة في أن يفتح أمامي كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه . وما دمت قد رأيت المخ هكذا فلأر القلب ولأر الكبد ولأر الأحشاء . لم يعد هذا الرجل في نظري رجلا ، إنما هو ساعة حيط كبيرة ممددة أريد أن أفتحها لأشاهد آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجرامها

ولم يجد الرجال شيئا كذلك بعد البحث الطويل . إنه لسوء حظ كما قال الطبيب ؛ ولكننا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القتيل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وأعمل المشرط في ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! اشرط ! ...

وأخذتني حمى غريبة وفقدت كل شعور إنساني فجعلت أقول للطبيب : أرني رئتيه ، أرني أمعاءه ، أرني الطحال الخ الخ . ولم يتردد الطبيب ، وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملى :

— وجدنا القلب سليما ، والأمعاء بها طعام مهضوم ، ولم نعثر مع كل ذلك على شيء . ففكرنا مليا . فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض . وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث في نفسي من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجزر والتقطيع بل آمر به ولا أرتعد ! ثم أي خيبة أمل ! لقد كنت أحسب الانسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغي أن نرى أنفسنا من الداخل . إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتي . ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت في نفس مساعدي أحداثاً . وأردت أن أسأله في ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبي ومعه إشارة تليفونية فقلت :

— اللهم خيرا !

وتناولت الاشارة . وما كدت ألقي عليها نظرة حتى صحت :

— البنت ريم ؟ ! . .

فأسرع مساعدي متلهفاً .

— مالها ؟

— وجدوا جثتها في الرياح قبلي البلد ؟

— وماتت ؟

قلت لك وجدوا جثتها ، خذ اقرأ الاشارة !

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينيه حتى وصل إلى آخر عبارة وهي : « ويحتمل أن يكون سبب الوفاة اسفكسيا الغرق » وقفت عيناه عليها لحظة من التأثر ، وكنت أنا أشد منه حزناً على انطفاء حياة هذا الشيء الجميل بهذه السرعة

وأطرقت قليلا أفكر في سوء حظنا ، لا من حيث العمل ، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ؛ بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعاً عاقلنا ومجنوننا ، ومخلوقا حلوا منحنا أويقات حلوة ولحظات مشرقة ، ونسيما عليلا هب على

صحراء حياتنا العاطفية الجدبة فى هذا الريف القفر
واستيقظت من تفكيرى ، ورفعت رأسى ومددت يدى إلى مساعدى أسترد الاشارة وأخط عليها العبارة المألوفة : « نأمر بتشريح الجثة » ، وفجأة تنبهت إلى فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثاً ، فليكن ، وإنى لعلى استعداد لتشريح نصف أهالى هـذه البلدة ، أما هذه الفتاة ... أما هذا الجمال فحرام أن نمزقه لنرى ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الاشارة بنظره الحاد فصاح :

— أظن ناوى تقول لى احضر التشريح

— ومين غير حضرتك ؟ !

— مستحيل ، أنا أولا كفاية علىّ تشريح الصبح ! حرام ! أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث ! أنا مساعد نيابة مش مساعد حانوتى ! ثانيا البنت دى بنوع خصوصى ...

فتأملت قوله ، وعذرته . وأطرقت لحظة ثم قلت :

لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له قلب يحضر .. أنا لو دفعوا لى عشرين جنيها ... ! هات الاشارة نشطب على التشريح ونأمر بالدفن ونخلص ... !

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض للنقد والمسئولية ، فالطبيب الذى كشف عن الجثة عقب استخراجها من النهر قرر أن الوفاة من اسفكسيا الغرق ، أى أنه لم يجد آثاراً مشتبهاً فيها تدل على أن الوفاة جنائية ، فاجراء التشريح فى هذه الحالة دقة لا مبرر لها ، آه لرجال الفقه والقانون أصحاب الغرض ! إنهم يستطيعون أن يتصرفوا على كل وجه تصرفاً منطقيا مقبولا . وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحا فى الطريق ، فقمنا إلى النافذة ، فاذا بنا نرى الشيخ عصفور يجرى فى الطريق ، عارى الرأس بدون عوده الأخضر ، والصبيـة والغلمان ، وجمع من الأهالى خلفه وهو يصيح كالمجنون :

ورمش عينهـا يا ناس
يفرش على الميّـــه
واحده بياض شفتشى
والثانيـــة باطيـه
والتالته من بدعها
غرّقها فى الميّه ...

وثار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير ، وتارة فى حركات كحركات خطباء المساجد وهو يغنى أحياناً ويرقص أحياناً ويجرى فى كل جهة حتى اختفى عن أنظارنا ، فلبثنا عند النافذة صامتين مأخوذين ؛ ثم انتبهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه :

— مسكين !

وعدت الى الاشارة ، وأمسكت بالقلم من جديد ، واسكن الشك والقلق خالجانى ..

— سمعته لما قال : « غرقها فى الميه » ! من اللى غرقها ؟ !

فقال المساعد :

— دى « هلوسة » مجانين ! حانفتح تحقيق بناء على « خطرفة » رجل مخبول فى الشارع ؟ ! أظن الأحسن ندفن البنت وننتهى !

فمحا قوله ترددى ، وضغطت على القلم ضغط العزم والاقتناع وخططت أمر الدفن وأنا أقول :

— صدقت ، أنا حتى نفسى انصـدت عن القضية وأصحابها ! !

(يتبع) توفيق الحكيم

الذبابة

للكاتبة الانجليزية كاترين منسفيلد

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

قال مستر وودفيلد فى صوت يشبه الصفير :

« إنك هنا ستكمل جميع أسباب الراحة والرفاهة . . . »

وكان مستر وودفيلد جالساً على كرسى كبير من النوع المريح من الجلد الأخضر ، إلى جوار مكتب صديقه المدير ، وأطل مستر وودفيلد ، وهو يوجه هذه الكلمات إلى صديقه ، من كرسيه كما يطل الطفل من عربته ، وبهذه الجملة ختم حديثه معه ، وقد آن موعد انصرافه ، ولكنه لم يكن راغباً فى الانصراف ، فهو منذ أن استقال من عمله ، أو بعبارة أخرى منذ أن أضرب عن العمل ، اعتادت زوجه وبناته أن يحبسنه فى البيت طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الثلاثاء ، ففى يوم الثلاثاء يسمح له بارتداء ملابسه واصلاح هندامه والخروج إلى طرقات المدينة ، حيث يقضى النهار كله أنى شاء ، ولكن لم يكن فى مقدور زوجه وبناته أن يتخيلن ما يعمله فى أثناء غيبته عن البيت ، على أنهن كن يفترضن أنه يزور بعض أصدقائه فيضايقهم بأحاديثه . . وقد يكون هذا الافتراض مطابقاً للواقع

والحق أننا لنتشبث بمسراتنا الأخيرة كما تتشبث الشجرة بأوراقها الأخيرة أيضاً ، وهكذا جلس الشيخ وودفيلد على كرسيه المريح يدخن السيجار الذى قدمه إليه صديقه ، وينظر نظرة ، يكاد يبدو فيها أثر الشره ، الى ذلك الصديق الذى يدور فوق كرسى مكتبه معتدل القامة أحمر الوجه ، فهو وإن يكن أكبر من ضيفه سناً بخمس سنوات إلا أنه لا يزال قوياً ولا يزال قابضاً على الدفة ، وإن الانسان لينتعش بالنظر إليه . ثم قال الشيخ بصوته الصفيرى فى شىء من اللباقة والاعجاب :

« نعم ، يشهد الحق أن هذا المكان هانئ مريح ! . . . . »

فقال المدير ، وهو يفتح صفحات جريدة فينشيال تيمس بمقطع الورق :

« نعم ، إنه مريح بالقدر الكافى »

والواقع أن الرجل كان فخوراً بغرفة مكتبه ، وكان يحب أن يعجب بها الناس وبخاصة صديقه العجوز الشيخ وودفيلد . ولقد كان من أشد بواعث شعور الرضى العميق الثابت فى نفس المدير أن يجلس معتدلا وسط هذه الغرفة متعرضاً تعرضاً تاماً لنظر صديقه الشيخ الضعيف القابع فى ذلك الكرسى الكبير الذى يكاد يخفيه عن العيون

وقال المدير موضحاً كما وضح فى الأسابيع الماضية التى لا يذكر عددها :

« لقد أعددت هذه الغرفة أخيراً اعدادا جديدا ، فهذه سجادة جديدة » ، وأشار إلى السجادة الحمراء الزاهية ذات الرسوم والدوائر البيضاء الكبيرة ثم قال :

« وأثاث جديد »

وأشار برأسه إلى المكتبة الكبيرة والمائدة ذات الأرجل الملتوية ذات اللون العسلى ، ثم قال :

« ومدافىء كهربائية »

ولوح بيده مبتهجاً نحو الخمس الأنابيب الشفافة المضيئة باللون الأحمر اللطيف داخل جهاز من النحاس ذى رفرف كالمظلة فوق هذه الأنابيب

ولكن الرجل لم يوجه نظر وروديفيلد إلى الصورة الفوتوغرافية المعلقة فوق المكتب والتى تمثل فتى عابس الوجه ، واقفاً فى لباسه العسكرى ، وسط واحدة من تلك الحدائق الخيالية التى يمدها المصورون فى دورهم ، وراءه سحب متكاثفة هى كذلك من صنع الخيال . ولم تكن هذه الصورة جديدة فى مكانها هذا ، فهى معلقة فيه منذ أكثر من ست سنوات

وقال وروديفيلد العجوز :

« كان عندى ما أردت أن أقوله لك »

وهنا ظللت عينيه غشاوة الذكرى ثم قال :

« والآن لا أكاد أذكر ما كنت أريد أن أقول فما هو يا ترى ؟ لقد كان فى رأسى عند ما غادرت بيتى صباح اليوم »

وبدأت يداه ترتجفان وبدت بقع حمراء على لحيته فرثا له صاحبه وأشفق عليه وقال فى نفسه : إن هذا الصديق المسكين قد بذل أقصى جهده فى الحديث ، ثم غمز له بعينه وقال مازحاً :

« سأخبرك أنا بهذا الأمر . فان عندى هنا قطرة من شىء ينفعك قبل أن تخرج إلى سقيع الطريق مرة أخرى . وهو مادة لطيفة لن تضر طفلاً صغيراً »

وأخذ مفتاحاً من حلقة مفاتيحه وفتح دولاباً تحت مكتبه وأخرج منه زجاجة مضلعة داكنة اللون وقال :

« هذا هو الدواء ، ولقد قال لى الرجل الذى أخذته منه ، فى لهجة التوكيد ، إنه جاء به من مخازن قصر وندسور »

فلم يقع نظر الشيخ وروديفيلد على الزجاجة حتى فغر فاه ؛ ولم يكن ليدهش أشد مما دهش لو أن صاحبه أخرج بدل الزجاجة أرنباً

وقال فى لهجته الصفيرية :

« أليس ذلك هو الوسكى ؟ »

فأدار صاحبه الزجاجة وأراه رمز مصنعها فقد كانت بالفعل زجاجة وسكى

وقال وروديفيلد وهو يحدق النظر فى صاحبه :

« أتعرف أنهم فى البيت لا يسمحون لى بتذوق الوسكى ؟ »

وبدا عليه كأنه يكاد يصيح من شدة الفرح .

وقال صاحبه رافعاً صوته :

« آه ... هذا هو الموضوع الذى نعرف فيه أكثر قليلاً من السيدات »

ومال نحو قدحين كانا على المائدة مع زجاجة الماء فصب فى كل منهما كمية وافية من الوسكى وقال :

« اشرب هذا فسيفيدك جداً ، ولا تمزجه بشىء من الماء ، فمن الخسارة إفساد مثل هذه المادة المقدسة . آه ! »

ثم جرع كأسه وتناول منديله فمسح شاربيه مسرعاً ، ونظر من طرف عينيه إلى وروديفيلد الذى كان يداعب قدحه بشفتيه

وشرب وروديفيلد القدح دفعة واحدة ، وبقى لحظة صامتاً ، ثم قال فى صوت خافت :

« إنه شديد الرائحة »

ولكن الخمر دفأته وأعادت قوة التذكر إلى رأسه البارد العجوز — فتذكر وقال وهو يرفع نفسه ليقف على قدميه :

« هاك ما أردت أن أقول ، فقد ظننت أنك تود أن تعرف أن البنات قد ذهبن إلى البلجيك فى الأسبوع الماضى ليلقين نظرة على قبر ريجى المسكين ولقد تصادف أن رأيت كذلك قبر ابنك ويبدو لى أن القبرين متجاوران »

ووقف الشيخ وودبفيلد عن الكلام ولكن صاحبه لم يجبه ، غير أن رمشة جفنيه أنبأت بأنه قد سمع

وقال الشيخ فى صوته الرفيع :

« وقد ابتهجت البنات بما رأين من العناية بالمكان ، ولو كانت هذه القبور فى انجلترا لما كانت بأحسن حالا مما هى عليه هناك . وما أحسبك قد ذهبت إلى ذلك المكان ؟ »

فأجاب الرجل : « لا . لا . »

وهو لأسباب عديدة مختلفة لم يسافر إلى البلجيك

فقال وودبفيلد فى صوت مرتجف :

« إن مساحة المكان تبلغ عدة أميال وكلها نظيفة منسقة كالحديقة ، والأزهار تنمو على جميع القبور . وهناك طريق واسعة جميلة »

وقد ظهر من نبرات صوت الشيخ مبلغ حبه للطريق الجميلة الواسعة ، وسكت الشيخ وودبفيلد مرة أخرى ثم ابتهج ابتهاجا غريبا وقال فى صفيره المعتاد :

« أتدرى كم تقاضى الفندق البنات ثمنا لعلبة المربى ؟ لقد تقاضاهن عشرة فرنكات ! وإنى لأسمى ذلك سرقة . ولقد كانت العلبة صغيرة كما تقول جرترود ، لا يزيد حجمها على حجم نصف الريال الانجليزى ، ولم تكن قد أخذت منها أكثر من ملعقة صغيرة عندما تقاضوها العشرة الفرنكات . لذلك أخذت جرترود العلبة وجاءت بها معها لتلقى عليهم درسا . وهذا حق أيضا ، فان هؤلاء القوم يتاجرون على حساب عواطفنا . فهم يظنون أننا مادمنا مضطرين لأن نذهب إلى هناك لنلقى نظرة على قبور أعزائنا فقد وجب أن ندفع كل ما يطلب منا دفعه ، هذا هو تفكيرهم »

واتجه الشيخ صوب الباب

وقال المدير فى صوت مرتفع وإن لم تكن فى رأسه أية فكرة عما هو هذا الحق :

« نعم هذا حق ! نعم هذا حق ! »

وخرج الرجل من وراء مكتبه وتبع صاحبه فى خطواته البطيئة حتى أوصله إلى الباب . وخرج وودبفيلد فغاب عن الأنظار

ووقف صاحب المحل لحظة طويلة ينظر إلى غير شىء . بينما « ساعى » المكتب الأشيب الشعر يرقبه من مكانه فى احتراس شديد ، يخرج رأسه بحذر ثم يعيده كالكلب الذى يتوقع أن يأخذه صاحبه معه فى مرحلة طويلة . ولم يلبث سيده أن قال له :

« لا أريد أن أقابل أحداً لمدة نصف ساعة . . هل فهمت ؟ لا أريد أن أقابل أحداً مطلقاً »

« ليكن ما تريد يا سيدى »

وأقفل الباب ، واجتازت الخطوات الثابتة الثقيلة السجادة الزاهية مرة أخرى ، وارتمى الجسم السمين فى الكرسى اللولبى ، ومال الرجل إلى الأمام مخبئاً وجهه بين كفيه . لقد أراد ولقد اعتزم بل لقد أعد عدته للبكاء . . .

لقد كانت الصدمة قاسية فظيعة عندما فاجأه الشيخ وودبفيلد بملاحظته على قبر ابنه . فلقد كان الأمر تماماً كما لو أن الأرض قد فتحت ورأى ابنه فى قبره وبنات وودبفيلد ينظرن إليه . لأن المسألة كلها كانت غريبة فانه وإن كان قد مضى ست سنوات على موت ابنه ، إلا أنه لم يتصوره إلا راقداً فى لباسه العسكرى لم يصبه تغير ولا تشوه ، وإن هى إلا نومة الأبد الهادئة

وقال المدير منتحباً : « ابنى ! »

ولكن عينيه لم تذرفا الدمع بعد ، وقد كان فى الماضى ، فى الأشهر الأولى وحتى فى السنوات الأولى بعد موت الفتى ، يكفى أن يذكر ابنه ليستولى عليه من الحزن مالا يمكن أن يخفف من قسوته إلا نوبة حارة من البكاء المر ، وكان يقول إذ ذاك ، لكل إنسان : إن الوقت لا يستطيع أن يبدل من حاله تلك ، وإن غيره من الرجال قد يشفون من أحزانهم ، وقد ينسون الخسارة التى أصابتهم ويتعزون عنها . أما هو فلن يكون ذلك شأنه أبداً ، ولن يبدل الزمن من حاله بأهناً منها ، وهل كان من الميسور أن تبدل حاله ؟ لقد كان ابنه ولداً وحيداً ، ومنذ ولادته شرع أبوه يؤسس له هذا العمل الذى يقوم عليه ، ولم يكن لعمله هذا من معنى إن لم يكن مقصوداً منه أن يبقى للصبى الصغير يقوم عليه بعد أبيه ؛ بل إن حياة الرجل نفسها لم يعد لها من معنى آخر غير ذلك ، فهو إنما يحيا من أجل ولده الصغير ، وأى شىء على وجه الأرض كان يحمله على أن يستعيد نفسه ، وينكر ذاته ، ويواصل العمل طوال هذه السنوات ، لولا الأمل الماثل أمامه دائماً فى أن يرى ابنه يدرج فى نعليه ، ويرتدى لباسه ، ويواصل العمل من حيث يتركه هو ؟

وكان هـذا الأمل على وشك أن يتحقق ؛ فلقد قضى الفتى سنة قبل الحرب ، فى مكتب أبيه ، يتدرب على الأعمال الأولية . فكان الأب وابنه يذهبان معاً كل صباح إلى المكتب ، وبعد انتهاء العمل يعودان كذلك معاً فى قطار واحد ، وما أكثر ما تلقى الأب من التهنئات بصفته والداً لهذا الولد الناجح ، ولا عجب فى ذلك ؛ فلقد كان الغلام مبدعاً حقاً فى إتقان عمله ، ولم تعلق به فى أية ناحية من نواحيه شائبة الغرور الذى يتلف خلق من كان فى مثل مركزه ؛ بل لقد كان على العكس من ذلك ، غلاماً سمحاً مشرقاً ، طبيعى الخلق ، يخاطب كل إنسان برأيه الصريح فيه ، فى عينيه نظرة الطفولة البريئة ، وقد تعود أن يجيب على ما يطلب منه بكلمات الطاعة المؤدبة

ولكن كل ذلك قد انتهى وتلاشى كأنه لم يكن من قبل ؛ فقد جاء اليوم الذى حمل فيه الخادم « مامى » إلى سيده الرسالة البرقية التى هدمت المحل كله على رأسه ، وقد استهلت تلك الرسالة بهذه الكلمات : « يؤلمنا أشد الألم أن نبلغك ... » وترك الرجل مكتبه ، مكسور القلب ، محطم الحياة

كان ذلك منذ ست سنوات مضت . . . نعم منذ ست سنوات .. فما أسرع أن مر الزمن ! وكان ما حدث قد حدث فى الأمس القريب ... وأزاح الرجل كفيه عن وجهه وقد علته الحيرة فقد خيل إليه أن فى نفسه شيئاً غير سليم ، وقد أعوزه الشعور الذى أراد أن يشعر به . فاعتزم أن يقف وينظر الى صورة ابنه الفوتوغرافية . ولكنها لم تكن إحدى الصور التى يحبها ، فنظرة الغلام فيها لم تكن طبيعية بل لقد كانت نظرة جامدة ، بل كانت نظرة عابسة متجهمة ، وهى نظرة لم يرها أحد قط من قبل على وجه الصبى

فى هذه اللحظة رأى الرجل أن ذبابة قد سقطت فى الدواة الكبيرة وأنها تجاهد فى ضعف ولكن جهاد المستيئس لتخليص نفسها من الشرك الذى وقعت فيه وكأنما كانت أرجلها المتخبطة تنادى : العون ! العون ! ولكن جوانب الدواة كانت مبللة زلقة فسقطت الذبابة مرة أخرى فى الحبر وشرعت تسبح فوق سطحه . فتناول المدير قلمه والتقط الذبابة فوضعها فوق ورق النشاف . فبقيت نصف ثانية جامدة لا تتحرك فوق البقعة السوداء التى ارتسمت حولها . ثم تحركت رجلاها الأماميتان وارتكزت على الأرض ، فجرت جسمها المبلل جراً

حتى رفعته قليلا ، وعندئذ بدأت المهمة الكبرى مهمة إزالة الحبر عن جناحيها ، فكانت رجلاها ترتفعان وتهبطان محتكتين بالجناحين احتكاك حجر المسن بالمنجل ، ثم وقفت هذه العملية لحظة ، وبدت الذبابة واقفة على طرفى رجليها الأماميتين ، وقد اجتهدت فى نشر أحد جناحيها ثم نشرت الجناح الآخر ، وقد نجحت فى محاولتها ، وجلست أشبه ماتكون بالقطيطة محاولة تنظيف وجهها . وليتصور الانسان منظر الرجلين الأماميتين تحتكان إحداهما بالأخرى فى خفة وابتهاج . فقد انتهى الخطر الفظيع ، وقد نجت الذبابة من الموت واستعدت مرة أخرى لمواجهة الحياة

ولكن فى هذه اللحظة بدت لصاحب المحل فكرة طارئة ، فغمس قلمه مرة أخرى فى الحبر ووضع قبضته الغليظة على ورق النشاف ، ولم تكد الذبابة تحرك جناحيها محاولة الطيران حتى غمرتها نقطة حبر كبيرة ثقيلة . فماذا عساها أن تفعل فى هذا الخطر الجديد ؟ نعم ماذا عساها أن تفعل ! لقد بدا على المخلوقة التعيسة أنها قد ذهلت وأصابتها الحيرة واستولى عليها الخوف من الحركة جزعاً مما قد يدهمها بعد ذلك . ولكنها لم تلبث أن جرت نفسها الى الأمام وكأنما كانت تفعل ذلك فى شىء من البطء

وقال الرجل فى نفسه إن هذه الذبابة شيطان صغير جرىء ، وشعر باعجاب حقيقى بشجاعتها . فهذه هى الطريق التى يجب أن تعالج بها المشكلات هذا هو الروح القوى السليم . لا تقل أبداً « أموت » فما هى إلا مسألة . . . ولم يكن لدى المدير من الوقت ما يتسع لأكثر من إعادة غمس قلمه فى الحبر وسكبه مرة أخرى على الذبابة التى كانت قد نظفت جسمها مرة ثانية وقال فى نفسه : « وماذا أنت فاعلة فى هذه المرة ؟ » وتبع ذلك فترة انتظار موجعة ولكن صه . . فها هما الساقان الأماميتان تعودان الى الحركة ، وشعر الرجل بارتياح مفاجئ ، فانحنى على الذبابة وقال يخاطبها فى رقة ولطف : « أيتها المخلوقة الصغيرة المجتهدة . . . » وحاول فعلاً أن يساعدها بأنفاسه فى تجفيف نفسها ولكن على الرغم من ذلك كانت حركتها فى هذه المرة ضعيفة بطيئة ، وقرر المدير وهو يغمس قلمه فى الحبر مرة أخرى أن تكون هذه آخر مرة

ولقد كانت بالفعل آخر مرة ، فقد سقطت نقطة الحبر الأخيرة على ورق النشاف ، فرقدت الذبابة القذرة تحتها جامدة لا تتحرك ، وقد التصقت أرجلها الخلفية بجسمها ، أما الساقان الأماميتان فقد اختفتا عن النظر

فقال الرجل : « هلم ... استيقظى ! »

وحاول أن يثير بقلمه حركة الذبابة ، ولكن عبثاً — فلم تتحرك ولم يعد من الميسور أن تتحرك لقد ماتت الذبابة

فرفع الرجل الجثة على طرف مقطع الورق ، وألقى بها فى سلة المهملات . ولكنه فى هذه اللحظة أحس بشعور ساحق من التعاسة يستولى عليه عنيفاً حتى لقد تملكه خوف حقيق ، فهم من مكانه وضغط زر الجرس طالباً خادمه « ماسى »

فلما جاء الخادم قال له فى لهجة حادة :

« جئنى بورق نشاف جديد واخصه جيداً »

وبينما الخادم يسير عائداً فى خطواته الثقيلة أخذ المدير يسائل نفسه فى حيرة : فى أى شىء كان يفكر من قبل ؟ ماذا كان الموضوع الذى شغل رأسه ؟ لقد كان يفكر ... وتناول منديله من جيبه فدسه بين عنقه وياقته . . . فلقد نسى نسياناً تاماً فى أى شىء كان يفكر ...

عبد الحميد حمدى

ناهد

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

« أوه . . . » — ووضعت يدها على صدرها الناضج ، بينما كانت يدها الأخرى على الباب !

« هل خوفتك ؟ . . . إنى آسف . . . المرة الآتية أضع على وجهى ستارا . . . هكذا . . . » وغطى وجهه بكفه ، وجعل ينظر اليها من بين أصابعه وهى تضحك

ووسعها أن تتكلم فقالت : « ألست حضرتك الأستاذ السمير ؟ »

فقال وهو يتكلف الجد : « كنت قبل اليوم فخورا بأن أدعى الأستاذ وأن يكون اسمى السمير . . هو اسم لا بأس به . . ويجب أن أعترف بأن أبى أحسن الاختيار وأولانى فوق ما أستحق حين سمانى السمير . . . ولكنى سأظل بعد اليوم أذكر فزعك حين رأيتنى . . . أم ترى هو وجهى الذى خفت منه ؟ »

فابتسمت « ناهد » وقالت : « لا يا أستاذ . . معذرة . . كل ما فى الأمر أنك كنت أستاذى فى المدرسة الـ . . . »

ففرك الأستاذ كفيه وقال : « آه هذا أحسن . . الآن فهمت لماذا أفزعتك رؤيتى . . معقول . . المعلمون شىء مخيف . . دأبهم أن يأمروا وينهوا . . يأمرون بالشىء كانوا ينهون عنه أو ينهون عما أمروا به . . . شىء يطير العقل . . . على كل حال الذنب المهنة لا لى . . والآن وقد اطمأن قلبى فهل هذه الشقة مسكنكم ؟ »

فسرها أنه يكلمها كلام رجل لفتاة ، لا كلام معلم لتلميذة ، وصار كل ما يقول يغريها بالضحك

وقالت وهى تغالب الضحك الذى لا داعى له : « نعم . . لنا فيها سنوات . . وحضرتك ؟ »

فقال واعتدل فى وقفته وزوى ما بين عينيه : « حضرتى الساكن الجديد فى هذه الشقة المجاورة لحسن الحظ — لشقتكم . . شاءت المقادير أن نكون جيرانا ، فاذا كان هذا لا يغريكم بالهرب أفلا ترين أنه يحسن أن نسقط « حضرتك وحضرتى » من حديثنا ، وأن نتكلم كما ينبغى أن يتكلم الجيران بلا تكلف ولا مجاملات »

فقالت وهى فرحة مسرورة : « بالطبع . . ولكن يا أستاذ كيف يمكن ؟ »

فقال : « آه رجعنا . . كلما رتقنا الفتق من ناحية انهار من ناحية أخرى . . أستاذ . . وحضرتك . . . يظهر أنى اتخذت مسكنى فى مدرسة داخلية . . »

فضحكت وارتج ثدياها الناهدان وقالت : « ولكن كيف أقول حين أخاطبك . . . لست أحب التكلف ، غير أنى مع ذلك لا أرى كيف أقول . . . »

قال : « قولى ما تريدين بغير أستاذ وحضرتك . على كل حال . . ألا ترين من واجبك أن تعرفينى

بهذه الفتاة الجميلة التى كانت تلميذتى ؟ »

فقالت بايجاز وقد اتقد وجهها حتى صار كالجمرة « ناهد »

ففرك ذقنه بيده وقال كأنما يحدث نفسه وعينه إلى الأرض : « ناهد . . ناهد . . اسم حلو . . ليته كان اسمى » (ضحك منها) ، ولكنه لا يحرك فى هذا الغربال الذى جعله الله لى بديلا من الذاكرة أى اختلاج . . آسف جدا . . لا حق لى أبدا . . ولكنى أعدك ألا أنساه بعد اليوم . . وكيف يمكن أن ينسى اسمك الحلو من يراك ؟ »

فأخجلها هذا الثناء المزدوج عليها وعلى اسمها ، وحمدت له فى سرها أن قصر المدح الصريح على اسمها

***

ولم يصدق الأستاذ السمير حين قال لها : إنه لا يذكرها ولا يذكر اسمها فقد كان معلمها ثلاث سنوات كاملة ولم تغب عنه إلا عاماً واحداً . وكانت أحب تلميذاته إليه وأجرأهن عليه ، وكان يسره منها أنها لم تكن تحجم عن مناقشته إذا بدا لها رأى فيما يقول ، وكان هو يؤثر أن يشجع تلميذاته على السؤال والبحث والغوص وعدم الاكتفاء بما يسمعن منه كأنما كان أستاذاً فى جامعة لا فى مدرسة ثانوية ، وأعداهن بالجرأة وألفن معه الحرية فى فى البحث فكن يحففن به فى حيثما يجدنه — فى فناء المدرسة أو على السلم أو فى الفصل — ويعطرنه أسئلة فى كل موضوع ولو كان لا صلة له بالتاريخ الذى يدرسه لهن . وكان هذا لا يسوءه أو يثقل عليه ، فقد أتم تعليمه فى انجلترا فلما عاد ثقلت عليه وطأة الفصل بين الجنسين ، فلما نقل إلى هذه المدرسة كان يأنس بحديث الفتيات ويرى فى ذلك بعض العوض عما يفوته خارج المدرسة . وكن هن يفرحن به لفرط ما يعانين من العزلة فى هذه المدرسة « الداخلية » والاستيحاش والحرمان ، فما كن يرين من الرجال سوى بعض الخدم واثنين أو ثلاثة من الشيوخ المتحجرين ، وهذا الشاب الظريف الساخر الذى يصدمهن ويروعهن بآرائه الجديدة فى الحياة وفى كل شىء ، والذى لا يفرض مع ذلك عليهن رأياً ، بل يدعوهن إلى التفكير الحر المستقل فى كل أمر وكل حالة من حالات النفس والاجتماع ، ويهش لهن ويمزح معهن ويضحكهن من أنفسهن ، ويسخر من كل ما نشأن عليه من العادات والتقاليد ، ويشعرهن أنهن إخوة له لا تلميذات يتهرن ويزجرن ويعاقبن كما لا يفتأ الأساتذة الآخرون يفعلون ، بل كما يفعل المعلمات أيضاً ، بل الناظرة الانجليزية التى تكاد تعدهن من طبقة دون طبقة الانسان . وكانت « ناهد » فتاة كاسمها ناهداً ، ورثت عن أمها رقة الحس ودقة الشعور وعن أبيها — وكان لواء فى الجيش — الصراحة والجرأة وحسن التقدير للواجب والادراك لمزية النظام . وكانت لها زميلة فى المدرسة تحبها حباً يقرب من العبادة وكانت هذه الزميلة — سعاد — ضامرة ضاوية ولكنها غنية مرفهة تجىء معها من البيت كلما عادت منه بألوان شتى من « المهربات » — حتى السجاير كانت تدسها فى خزانتها ، فاذا أمنت عين الرقيبة أشعلت واحدة واضطجعت على الوسادة وراحت تدخن والبنات ينظرن إليها مبتسمات حاسدات ، ولكنهن كن يحببنها فكن لا يقلن شيئاً ، ويحرصن على ستر هذه المخالفة عليها . وكانت كريمة سخية بكل ما معها إلا السجاير فكانت لا تجود

على بنت بأكثر من « نفس » ولكنها كانت تلح على ناهد أن تدخن وتعرض عليها السجاير كلها فتهز ناهد رأسها وتشيح عنها بوجهها نافرة — من التدخين ومن المخالفة — وكانت سعاد ربما جمح بها حبها لناهد فتطوقها بذراعيها وتضمها وتقبلها وتدعوها أن تفعل مثل ذلك فيضيق صدر ناهد بهذا الحب ، وتتفلت من عناقها متأففة متبرمة وتصيح بها : بس . فتكف سعاد وتروح تستعطفها وتسترضيها وتحاول أن تتألفها من نفرتها وترقد إلى جانبها على سريرها كالقطة أو الكلب وترجو منها أن تدعها ترقد على سريرها لتنعم بقربها فتنهرها ناهد — وإن لم تكن بها قسوة — ولا تزال بها حتى تقصيها عن سريرها فتقوم المسكينة آسفة محزونة مطأطأة الرأس ، فيرق لها قلب ناهد وتردها إليها وتقبلها وتقول لها : « الآن اذهبي الى سريرك راضية » فيشرق وجه سعاد ويلتمع فيه نور البشر وتجرى إلى سريرها قريرة العين

وكانت ناهد تحس حين تلقى الأستاذ السمير وتتاح لها فرصة الحديث معه أن هذا خير عوض عما تعانى من حب سعاد لها — هذا على الأقل رجل ولم تكن تدرك شيئاً من المعانى الجنسية بوضوح ولكنها لم تكن تحتاج إلى أكثر من فطنة الغريزة

ولم تكن خبرتها بالحياة والناس قد زادت بعد تركها المدرسة اكتفاء بما حصلت من التعليم الثانوى فقد بقيت حياتها فى البيت — كما كانت فى المدرسة — أشبه بحياة الراهبات فى الدير سوى أن وطأة الرهبنة فى البيت أخف ، فلما التقت بمعلمها السابق فرحت بذلك وسرها على الخصوص أنه تنامى وهو يكلمها أنها كانت تلميذته ، وكانت هى قد نسيت ذلك أيضاً ثم عادت تذكره حين رأته يتجاهل هذا ويغضى عنه ويكلمها كما يمكن أن يكلم أية فتاة ، خفق قلبها ورضيت عن نفسها وعنه

واتصلت الأسباب بين الأسرتين ، وتبودلت الزيارات وكثر لقاء الأستاذ السمير بناهد . وكانا كثيراً ما يقفان فى شرفتيهما المتجاورتين يتحدثان واستطاع بلباقة أن يزيل الكلفة . وقد بقيت تدعوه الأستاذ ولكن اللفظ فقد ما كان له من الدلالة القديمة . وكان هو يتعمد أن يجعل من نفسه عادة لها وأن يشعرها أنه رجل وأنها هى فتاة ، وكان إذا لقيها يحس أنها تهم بأن تمد يدها إليه لتحيته كما هى العادة فيتعمد أن يهمل ذلك ليذيقها الحرمان وإن كان طفيفاً وفى أمر لا قيمة له . وأحياناً يرى كفه الكبيرة على كتفها ويحدق فى عينيها كأنما يغوص على سرها ، فتطرف وتغضى حياء ويضطرم محياها النضير الصبيح فيربت لها على ظهرها ويلمس ذقنها بأطراف أصابعه ، ويرفع وجهها حتى تلتقى العيون مرة أخرى ، فتتبسم وتنازعه نفسه فى أمثال هذه اللحظات أن يلثم فمها ، فيرد نفسه بجهد ويغضى عنها إلى النافذة وهو مطرق فتتبعه بعينها ولا يسعها إلا أن تفكر فى هيئته وحالته ودلالة ما ترى منه

وقال لها مرة — وكان فى شقتها — بعد أن شرب القهوة : « اسمعى » وسبقها إلى النافذة : « ما قولك ؟ . بعد غد عيد الجلوس . »

قالت : « آه »

قال : « هذه فرصة يمكن أن تغتنميها للخروج مرة إلى الرياض »

قالت : « لست فاهمة »

قال : « لقد كنت منذ بضعة أيام فى القناطر الخيرية .. »

فسألته : « وحدك ؟ »

فخطر له أن يدعها تظن ما شاءت لأن هذا أخلق بأن يزيدها تعلقاً به وقال : « والحق إنها جنة .. فتعالى نذهب إليها يوم عيد الجلوس ونتغدى هناك .. أسبق أنا إلى المحطة وانتظرك عند تمثال نهضة مصر وتلحقين بى هناك .. سأعد أنا كل ما نحتاج إليه »

فقالت : « ولكن كيف أستطيع ؟. ماذا أقول لهم ؟ »

قال : « إذن سأنتظرك هناك .. الساعة التاسعة تماماً .. »

فاظهرت التردد وبدت عليها الحيرة فأراد أن يستثير احترامها لنفسها فقال : « لا داعى من الخوف على نفسك من وجودك معى فى هذه الحديقة العامة »

فاغضبها أنه يتوهم أنها تخاف وثارت نفسها على هذا الظن ، وفعلت ما كان ينتظر فقالت : « طيب » وانصرف مسروراً راضياً عن نفسه ، وارتدت هى عن الباب بعد أن شيعته إليه ساخطة عليه تقول لنفسها (يظن أنى أخاف منه .. بففف ..) وخطر لها على الرغم من سخطها وغضبها أن عينه برافة وأن الشعر الكثيف الذى على ظهر كفيه جميل

وقالت لأبيها صباح اليوم الموعود : « أنت ذاهب إلى التشريفات .. خذنى معك »

فقطب وقال بلهجة المستغرب : « آخذك معى ؟ إلى التشريفات ؟ .. »

فأضحكها هذا جداً ، وقالت وهى تكاد تقع عليه : « أنت ظريف يا بابا .. موت .. »

فقال : « ولكن ماذا تعنين ؟ . . آخذك معى ؟ . . »

قالت : « إلى بيت زميلة لى من أيام المدرسة أتفرج من عندها على .. على .. على التشريفات .. بيتها أمام السراى . . »

فقال : « هل تريدين أن يضحك منى الخلق ؟. تركبين معى إلى عابدين ؟.. لا لا لا »

قالت : « لن أدخل السراى . . تضعنى أمام البيت وتذهب أنت إلى التشريفات . . لم لا ؟ »

فقال : « لا يا ستى . . اذهبى أنت وحدك . . أو انتظرى حتى أعود ثم اذهبى بالسيارة »

قالت : « يا بابا أنت مدهش . . أنتظر حتى تنتهى التشريفات ثم أذهب ؟. وماذا أرى إذن ؟. طيب اذهب انت وحدك . . أقول لك . . خذنى معك إلى العتبة الخضراء . . »

فرضى وحملها معه فى السيارة إلى العتبة الخضراء ولو ألحت لحملها إلى ميدان عابدين ؛ بل لدخل بها القصر ؛ فقد كان حبه لها — وهى وحيدته — عظيما ودلالها عليه كبيراً ، وقلما استطاع أن يرضى عن نفسه إذا هو رفض لها رغبة أو أبى عليها شيئاً ولم يفسدها هذا التدليل الشديد ؛ بل زادها حباً له وإكباراً

ولقيت السمير عند قاعدة التمثال ، وكانت معه حقيبة فحملها ومضى إلى جانبها صوب المحطة ، وجلسا فى القطار وكرّا إلى ذكريات المدرسة فعرض ذكر إحدى البنات البارزات ، وكانت باهرة الجمال . فقالت ناهد : « إنها فظيعة ... يقال إنها تشرب الخمر ... » ، وخجلت من نفسها لأنها قالت هذا واغتابت زميلتها ، ولكن الاغتياب لذيذ

فقال الأستاذ السمير : « تشرب خمراً ... وما ضرر القليل من الخمر يافتاتى التقية الورعة ...؟ ليت معى شيئاً منها أشربه على الطعام »

فقالت بسذاجة : « ولكنها تتلف أنسجة

الدماغ ... هذا ثابت علمياً ... كل كتاب فى الفسيولوجيا يقول ذلك »

فقال : « أهنئك بما قرأت من كتب الفسيولوجيا ... طبعاً قرأتها كلها ... بالعربية والانجليزية والتركية واليابانية أيضاً »

فقالت : « أوه ، إنك تعرف ماذا أعنى ، فلا تتهكم »

فقال : « بالطبع ... ولكن هل تعرفين أنت ماذا تعنين ؟ ... الحقيقة أن قليلاً من الخمر قد يفيد فتاة مثلك ... يخرجك من هذا الجد الصارم فى أمور لا قيمة لها ولا وزن ... يجعلك أقرب إلى النوع الانسانى ... ألا تشتهين أن تحيى ؟ ... مرة واحدة ؟ ... لحظة واحدة ولو قصيرة ؟ ... حياة حافلة ؟ ... »

فشعرت أن إلحاحه هذا عليها بهذا الكلام يزعجها ... وأحست كما كانت خليقة أن تحس لو أنه وضع أصبعه على ضلع من ضلوع صدرها وغرزه ... وقلقت ...

وبلغا الرياض الفسيحة عند القناطر ، فاختار مكاناً ظليلا تحت شجرة لفاء وقعدا على دكة هناك متقابلين وأخرج ما فى الحقيبة استعداداً للأكل وقال لها : « رتبى هذا ... هذا عملك ... ويجب أن تصنعى شيئاً لتستحق الطعام ... اكسبى رزقك مرة بعرق الجبين ... »

ووضع زجاجة على الدكة ، فنظرت إليها وتناولتها وقرأت ما عليها وقالت : « هذا نبيذ ... »

قال : « نعم نبيذ ... ومن خير الأنبذة ... نبيذ الرين ... يجب أن يوضع فى الثلج ... سأدعو خادم البوفيه ليجيئنا بوعاء وثلج »

وذهب ثم عاد فألفاها لا تزال تتأمل الزجاجة وسمعها تقول وهى تبتسم : « لا أتذكر أنى رأيت مثلها من قبل ... رأيت زجاجات الويسكى فان أبى كان به ... أكثر الضباط يشربون الويسكى ... ولكن النبيذ ... لا ... لم أره من قبل ... شكل الزجاجة جميل ... »

فسألها : « هل تريدين أن تقولى إنك لم تذوقيه من قبل ؟ »

قالت : « أبدا ... شربت مرة قطرة ... قطرة ليس إلا ... من البيرة ... وكم كرهت طعمها ... أما النبيذ ... لا أبداً »

فسألها وهو ينظر إليها — يحدق فى عينيها — ويبتسم : « وما قولك فى أن تذوقى هذا وتكرهى طعمه بعد ذلك ؟ »

قالت : « سآخذ قليلا إذا سمحت ... بالطبع هذا عيب ... ولكن وجودى معك هنا أيضاً ... كشرب النبيذ ... »

فسره حسن التعبير وابتسم لها ولم يقل شيئاً وكانت صادقة ، فما ذاقت من الخمر إلا قطرة كما قالت من البيرة ، وإلا قليلاً من الكونياك تحتاج اليه الفتيات أحياناً ليهون مايعانين من أوقات معلومة

وأكلت من السندويتش ثم بدأت تذوق النبيذ ومطت شفتيها فقد وجدت طعمه كطعم الخل ، وخاب أملها فيه كما خاب فى البيرة من قبل وعجبت للرجال ماذا يجدن فى هذا الشراب وأمثاله من اللذة

وقال لها : « هل لك فى كأس أخرى ؟ »

فهزت رأسها وقالت : « لا مرسى ... يظهر أن العادة هى التى تجعل مذاقه سائغاً »

فلم يلح عليها بل قال : « لا بأس .. هذا يترك بقية الزجاجة كلها لى وحدى ... مرسى »

فحمدت له أنه لم يلح وشعرت بالاطمئنان ، فقد كان الخوف يساورها على الرغم من تشجعها

وسرعان ما أحست أن معدتها حميت بفعل النبيذ ، فمدت يدها وأترعت لنفسها كأساً أخرى ولمحها الأستاذ فتعمد الاغضاء وشعرت بالدفء والخفة والسرور وحلت المناظر فى عينيها وأحست أنها تريد أن تجرى هنا وهنا — وهل هى إلا طفلة ؟ — وأدرك السمير ذلك فنظر اليها وقال : « لم لا ؟ قومى اجرى . . . سابقينى . . . أو أقول لك ... هذه كرة جئت بها معى ... تعالى نلعب بها . . . »

وكانت قد نهضت فانحنت عليه وهو يخرج الكرة من الحقيبة وقالت مستغربة : « كرة ؟ . . كيف خطر لك أن تجىء بها ؟ »

فقال : « من أجلك ... ياصغيرتى ... »

وأخرج شيئاً آخر ملفوفاً فى ورق وقال وهو يلوح لها به : « وجئت أيضاً بشيكولاتة ... لفتاتنا الصغيرة فان الصغيرات يحببن الحلوى »

فقالت : « أتسخر منى ؟ »

قال : « أولست صغيرة ؟ »

قالت : « صغيرة بالطبع ... ولكن ليس الى هذا الحد ... لست طفلة »

فقال : « حسن ... نرد الشوكولاتة الى مكانها ونذخرها لبنت صغيرة ... »

فصاحت به : « لا لا لا » وضحكت وخطفت الشكولاتة

ولعبا بالكرة قليلا وسرها أن رجلاً طويلاً عريضا مثله يلاعبها وكادت تقع مرة وهى تحاول أن تلقف الكرة ، فأدركها — أحاطها بذراعه فتعلقت به اتقاء للسقوط على الحشائش البليلة وصارت على صدره ، وخيل إليها أنها تستطيع أن تبقى كذلك الى الأبد . وكرّ بها الى الدكة وأخرج السجاير وقدم اليها واحدة فحاولت أن تدخن المرة التاسعة أو العاشرة فى حياتها . والمرة التاسعة أوالعاشرة أخفقت ولم ترض عن الطعم الذى وجدته ولكنها مع ذلك كانت مسرورة — النبيذ الماسخ وهذه الدكة الخشبية التاشفة والأرض الخضراء المتوجة والأشجار الباسقة الهرمة والشمس التى تملأ الدنيا بشراً ودفئاً وأخيراً هذا الرجل

ولم تفزع بل أحست بالرضى والاغتباط حين دفع ذراعه ، فأحاط بها خصرها وأمال خدها الصابح على كتفه ، وسرها أن تلمس بخدها ثوبه الخشن الدافئ ، ولكنها استاءت لما رفع محياها إليه ليقبلها ، وحدثت نفسها أن الرجال جميعاً هكذا ، وإن كانت هذه أولى تجاربها ، ورأى هو انقباضها . فقال لها وهو يضحك : « هل تعرفين حكاية الرجل الذى سأل الطبيب هل يمكن أن يعيش — كأبيه — مائة سنة ؟ فسأله الطبيب : هل هو يدخن ، أو يشرب الخمر ، أو يحب النساء أو يحيى الليل بالسهر ، أو يهوى شيئاً من الأشياء التى يكلف الناس بها . فقال الرجل : إنه لا يفعل شيئاً من ذلك ، وأنه لا هوى له فى شىء ، فعجب الطبيب وسأله : إذن لماذا تبغى أن تعيش مائة سنة . ماذا تصنع بها ؟ »

وأدهشها أنه طوقها فجأة وأهوى على فمها بالقبل فى غير رفق حتى لأحست أنها توشك أن تختنق ، واستغربت من نفسها أن امتعاضها حين همّ بتقبيلها أول مرة زال ، وأنها لا تسخط على الرجال ؛ بل أذهلها أنها شعرت أن شفتيها دبت فيهما الحياة وقالت بضعف : « أرجو ... »

فصاح بها : « ألا تريدين أن تكونى امرأة حقيقية ، لا مجرد فونوغراف يعيد ما حفظ فى المدرسة ؟ ... ألا تشتهين أن تحسى وتشعرى بجسمك يحترق وتضطرم فيه النار ... تندلع من أخمص القدم إلى الرأس ؟ ... هه ؟ »

فقالت : « لا أدرى ... أظن ... ولكن ... »

فصاح بها مرة أخرى : « تظنين ماذا ؟ ... خائفة ؟ ... هه ؟ »

وجذبها إليه مرة أخرى وقبلها بعنف ، فزاغ بصرها ، وخفق قلبها ، وسرت فى بدنها رعدة خفيفة — من السرور لا من الفزع أو الجزع — وخيل إليها أنها كرمال الشاطئ الجافة التى ارتفع المد إليها بالماء فرواها ، ولكنه أسرف فى التقبيل وعنف فى الضم ، فأحست بالبرد والفراغ فى بدنها ووسعها أن تصيح به كما كان يصيح : « بس ... قلت لك بس ... » ، ولم تكن قد قالت له « بس » ولكن هكذا زعمت ... فخلاها ، ولكنه ظل ينظر إليها نظرة الصبى الذى يعمر صدره اليقين بأنه ذاهب إلى الملعب ليرى الدبة الراقصة وقال : « إنك فاترة ... ليس فيك حرارة »

فساءها ذلك وقالت : « فاترة ؟ ... لقد صرنا نتكلم بصراحة ... لا لست فاترة .. وأقول لك إنى استطبت القبلة الأولى ، ولكنك أردت بعد ذلك أن ... باختصار ... زدتها ... فهل يرضيك هذا الاعتراف ؟ ... فاترة ؟ ... »

فقال وهو يتأملها : « نعم فاترة ... ليس الذى فى عروقك دم حار ، وإنما هو حبر أحمر ... كلا ، لا حرارة على الاطلاق فى هؤلاء الفتيات المتعلمات ... لقد أصبحت أؤمن بالمرأة الأمية ... إنها على الأقل لا تتكلف ولا تتفلسف ، ولا تعرف إلا ما تحس ... طبيعية ... »

فأغضبتها هذه الحملة منه عليها بلامسوغ تعرفه ، وأسخطها أنه يستفزها ، واستصغرت منه ما يحاول من تحقيرها ، ونفرت من لهجة الشموخ والتعالى فقالت له بجرأة أدهشتها هى قبل أن تدهشه : « ألا يمكن أن يخطر لك أن فى نفسى حرارة كافية ولكنك أنت لست ذلك البطل المغرى الساحر الفاتن الذى تتوهم ؟. يمكننى أن أقول لك إنى وأنا صغيرة أحببت ابن البقال الذى كان تحت بيتنا ... كان صبياً مثلى ولكنه كان فيه رجولة ... لم يكن عابثاً يرسل يده كالأفعى ليلمس الثدى .. لم يكن يحاول إغراء البنات الساذجات بقلب دروس التاريخ قصصاً غرامية وتصوير الدنيا كلها كأنما ليس فيها إلا رجال يتنزون ونساء تتركهن الشهوة الجامحة كالورقة المبلولة . لقد عميت لحظة عن حقيقتك ولكنى الآن أراك .. كما أنت .. فاترة ؟ مالك أنت ؟. من فضلك اسمح لى أن أعود .. »

ونهضت ووقفت معتدلة القامة كأنها أبوها الجندى وخيل إلى الأستاذ السمير لحظة وهو ينظر إليها مبهوتاً أنه لن يستغرب إذا طر لها شارب .. وعجب لأنوثتها أين ذهبت ، ولذلك اللين الساحر فى عودها ماذا صنع الله به .. منذ دقائق كانت إلى جانبه ، وكان يحسها كالزبدة الطرية والآن .. تقف كالرمح ... بنت أبيها ... عجيب ...

وقال وهو يمد إليها يده : « إنى آسف ... ومعتذر ... وأصدقك فأقول إنى كنت أتوقع ولا أستغرب أن أسمع منك شتما أو زجراً أو نحو ذلك ولكن هذا الكلام ... أعترف أنه آخر ما كان يمكن أن يخطر لى أن أسمعه حتى من رجل فكيف بفتاة غريرة مثلك »

فقالت ببساطة : « إني فتاة غريرة ... هـذا صحيح ... لا تجربة لى ... لم أعرف الرجال ... ولـكنى لست ... لست حمـارة ... وثق أن كل الفتيات مثلى ... تنقصهن التجربة ولـكنهن لا ينقصهن الادراك الصحيح ... يستحيين أن يقلن ما يعرفن ... هذا كل ما هنـالك ... ولـكنى أنا تعودت ألا أستحى ... لماذا أخجل ...؟ » وهزت كتفيها ومشت أمامه

وعاد فى صمت وكانت هى تحدث نفسها وهى جالسة فى القطار تحتقر ما بدا من صغاره لها ، غير أن صوراً معينة أبت ألا أن تخايلها — منظر كفه الـكبيرة التى يكسو ظهرها الشعر .. ورأسها المـائل على كتفه الخشنة .. وشفتاه على شفتيها .. وحلاوة القبلات الأولى المباغتة ... حلاوة لا عهد بها ولا كان فى ظنها أن مثلها استفاد من الشفاه .. وودت لو تعرف من أين تجىء هذه الحلاوة . . . ولماذا تسرى الرعدة فى البدن . . أترى الشفة باب شىء ؟ باب الى ماذا ؟ هذا المجهول ماذا هو يا ترى ؟

وكان هو يحدث نفسه أنها نسخة طبق الأصل من أبيها ، وأنها جديرة أن تلبس بذلة صفراء . . . كاكى . . . وتبدو فى شكة عسكرية . . . والكلام الذى قالته من علمها إياه . . لم يكن يعرف أن فتاة غريرة مثلها — هى غريرة على التحقيق — يمكن أن يكون هذا إدراكها وتلك لهجتها ... لو كانت فى الستين من عمرها لـكان كلامها غير مستغرب .. أما منها . . عجيب . . أتراها تقرأ كتباً . . ولـكن أى كتب . . . لتقرأ كل ما فى الدنيا من كتب فانها المعبرة بغير ذلك ... المعبرة بماذا ... لا أدرى كيف أقول ، ولـكنى أظن أن الـكتب وحدها لا تكفى .. الادراك الصحيح يجىء لامن الـكتب وحدها بل منها ومن التجربة ... وأى تجربة لهذه التى لعلى أول من قبلها كما قبلتها . . ولـكن من يدرى . . . كيف أكون واثقاً بعـد الذى سمعته منها ؟ المرأة لغز محير . . أهو ذكاء فطرى .... !

وافترقا فى المحطة بلا مصافحة ، وعاد كل منهما إلى البيت من طرقق ، وحلت النبوة ووقعت الجفوة ، وفتر الحال بين الأسرتين ، وانقطعت الزيارات ، وامتنع التلاقى ، وصارت هى لا تخرج إلى الشرفة حتى تستوثق أن شرفته خالية ، وصار هو يرتد أو يحول وجهه إلى ناحية أخرى إذا برزت فى الشرفة أو أطلت من نافذة . وكان كلاهما مع ذلك مشغولا بصاحبـه . . هو يندم على ما كان ويحدث نفسه أنه فقد كنزاً ، وإن كان كنزا رهيباً . . كنزاً فيه أو هو فى بركان . . وهى تحلم وعينها مفتوحة بالقبلة الحلوة ، والضمة القوية ، والشعر الـكثيف على ظاهر اليد ، وتتساءل عما وراء ذلك من أسرار المتعة الخفية . . .

وجاء يوم أحست فيه أن أمها تتبعها بعينها وتجعلها أبدا عليها ، وخيل اليها أن أباها يرمقها أحياناً بنظرة فاحصة ، وزاد قلقها أنهما لم يقولا لها شيئاً ولم يستغربا هذا الفتور الحاصل بين أسرتهما وأسرة السمير بعـد الاختلاط الوثيق ، وأنهما لم يسألاها مرة عن شىء . وثقل هذا الشعور على نفسها وحيرها الأمر ، ولم تدر ماذا تصنع ، ونازعتها نفسها أن تصارح أباها بالأمر كله ، فقد كانت على خلاف المألوف المعهود تسكن إلى أبيها وتبثه ما فى نفسها واثقة من عطفه وفهمه ، ولا تفعل ذلك مع أمها ، ولـكنها ترددت وطال التردد ، وخطر لها مرة أخرى أن تكلم الأستاذ السمير نفسـه فى الموضوع . ولـكن ماذا تقول له ؟ . أتستجديه . .

أتطلب منه النجدة ؟ . .

وضاق صدرها بما أجن ، وقلبها بما وجد ، وكان صدرها يجن للأستاذ السمير خليطا عجيباً من الهوى والنفور والشوق والامتعاض ؛ وخيل اليها أيضاً أن قلبها يجن له الاحتقار ، ولكنها لم تستطع أن تقنع نفسها بهذا . واتفق يوما — أو ليلة على الأصح — أن دخلت على أبيها ، وكان وحده ، فقالت : « هل أضايقك إذا بقيت ؟ » فأفسح لها إلى جانبه ولم يقل شيئاً ، وقعدت وطال الصمت ، وتوهمت أن أباها ينظر اليها خلسة ، وكبر فى ظنها أن على لسانه كلاماً يرد نفسه عنه بجهد ، فلم تعد تطيق وصاحت به فجأة ووضعت يدها على صدره العريض : « أبى . . . » وانطلقت تحدثه وتروى له ما كان ، وهو مطرق يسمع ولا يقاطع ولا يقول شيئاً حتى انتهت ، فرفع اليها وجهه الشاحب وابتسم ، فانفجرت باكية ، فربت لها على ظهرها وقال بايجاز . « لم يخب ظنى بك » فجفت دموعها بسرعة وحدقت فى وجهه وسألته :

« هل . . . هل . . . كنت تعرف شيئاً » فقال : « كلا . . . لم أكن أعرف شيئاً . . . كنت أشعر أن هناك شيئاً . . . وأتوقع أن تقصيه على . . . وخطر لى أن أذهب إلى الأستاذ السمير وأسأله . . . لا لا لا لا . . . لا تتعجبى . . . لم أفعل شيئاً من هذا . . . ارتد إلىّ عقلى . . . لم تكن بى حاجة إلى الكلام معه ولا إلى سؤاله لأنه هو جاءنى أمس وسألنى هل أرضى أن أزوجه منك . . . واعترف أن هذا السؤال زاد قلقى . . . خفت أن يكون قد حدث أمر خطير . . . فقد كان يكلمنى وكأنه يشيع ميتاً . . . اعتقدت أن هذا الطلب تكفير عن إساءة خفت أن يكون هذا هكذا . . . لم أقل له شيئاً . . . بل قلت له : إن هذا سؤال جوابه عند ناهد . . . فقال : إذن لا أمل لى . . . فاستغربت واطمأن قلبى . . سامحينى يا ناهد إذا كنت قد قلقت عليك . . . لم أسئ بك الظن . . . ولكنك صغيرة والرجال شياطين . . . وقلت له هل يتصور أن من الممكن أن يتزوج فتاة متعلمة فى هذا العصر على رغم أنفها . . . أو هل يريد منى أن أكون جلاداً . . . نهايته هذا ما كان . . . فما قولك ؟ »

فأطرقت ثم رفعت رأسها وقالت : « لا أدرى » وهزت رأسها : « يخيل إلى أحياناً أنى أحبه . . . وأحياناً أخرى أنى أحتقره . . . لا لست أحتقره ولكنى لا أطيق سخريته وتعاليه . . . بارد . . . »

فابتسم ابتسامة العارف الفاهم المدرك وقال : « هذا التردد معناه أنك راضية . . . لا تقاطعى . . . انتظرى . . . أنت مشغولة به . . . وهل الحب إلا هذا الشغلان ؟ . . . أنا أعرف . . . أبوك يعرف . . . يا ناهد صدقينى . . .

فتركت الموضوع وأغراها الفضول بسؤاله : « هل أحببت فى حياتك يا بابا ؟ »

فقال : « طبعاً أحببت » ثم أسرع فقال : « أمك »

فربتت له على خده الخشن وإن كان حليقاً وقالت بلهجة من يدلل طفلا ، وأحست وهى تفعل ذلك أنها تستطيع أن تكون أماً لهذا الرجل الكبير الضخم الأبيض الشعر ، وشعرت بفيض من الحنو : « وهل أحببت غيرها . . غير أمى ؟ »

فارتبك وارتفعت يده إلى شاربيه وقال : « إيه ؟ ما هذا الكلام ؟ قومى . . قومى . . قومى . . أ . . أ . . أنا جائع »

فانفجرت ضاحكة وقالت : « هذا أصرح اعتراف سمعته أو سمعت به »

وخرجت تنساب لتعد له الطعام

ابراهيم عبد القادر المازنى

ماتيو فالـكوني رجل عنـد الخمسين ، متكتل العضل ، مفتول الذراعين ، عريض ما بين المنكبين ، خفيف الحركة كالسنور ؛ له عينان كبيرتان تنبعث منهما أشعة قوية نفـاذة ، وشفتان رقيقتان ، وشعر أسود جعْد . ذهب صيته في أرجاء وطنه — جزيرة قورسيقا — بما له من قدرة عجيبة على إصابة الهدف فهو أنى رمى أصاب ، سواء بالليل أم بالنهار . وهو لطيف المعشر ، رضيّ الخلق ؛ فاذا جُرِّح أو امتُهن فهو عدو لدود فيه العتو والجبروت ، ينزل عن إنسانيته حتى يبلغ من خصمه مأربا ...

رحل ماتيو فالـكوني عن مسقط رأسه الذي نُشّئ فيه وترعرع إلى ثغر بورتوفيكيو في جنوب الجزيرة ليعيش هناك عيشة الهدوء والطمأنينة في منزل ريفي وضيع تحيط به غابة متشابكة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، في منأى عن صخب الحياة ولجبها وقضى دهراً من عمره يتعهد بنفسه قطعة من الأرض وبعض قطعان الغنم ، فينال من كل ذلك مالاً رفعه إلى صف أعيان الريف وأغنيائه ؛ ثم هو سخي سمح طلْق اليدين والوجه ، سريع إلى الخير ، بطيء عن الشر

تزوج ماتيو من جيُوزيبا صغيراً فرزق منها ثلاث بنات تزوجن جميعاً ؛ واستطاع هو أن يجد المعونة في أزواج بناته ، غير أن قلبه ما زال حزيناً يأسف على أن لم يحبُه الله بذكر يحمل عنه بعض ما يثقله من أعباء الحياة ومتاعبها ... ثم جاءه البشير ... لقد ابتسمت له الأيام عن طفل هو أمل الأسرة الحلو ، وواحدها ، ووارث اسمها ومالها .. هو فورتناتو ؛ ودرج الطفل قرة عين أبيه وأمه معاً يسهران عليه ، ويحبوانه بعطف منهما ورعاية ، ثم راحا ينشِّئانه ليكون صِنو أبيه فشب وفي عينيه دلائل الشجاعة والفراهة ، وفي جسمه سمات القوة والفتوة ...

***

وفي ضحوة يوم من أيام الخريف — والطفل في العاشرة — انطلق الأب وزوجته يستطلعان خبر غنمهما ، وأراد الابن أن يصحبهما فأبى الأب إلا أن يظل عند الدار يحرسها

وتصرمت ساعات والطفل وحده ينطرح حيناً في دَعة أمام الباب ، تحت أشعة الشمس الهادئة ؛ وحيناً يستمتع بالنظر إلى أشجار الغابة الباسقة ، وإلى الجبال الشاهقة على مرمى البصر ؛ ويتلذذ حيناً بالأخيلة الجميلة تضطرب في رأسه حين يخيل إليـه أنه سيزور المدينـة يوم الأحد فيرى عمه القائد ، ويجول في أرجائها فيشهد أشياء حرم منهـا حيناً من الدهر ؛ وسيطرت عليه الفـكرة فابتسم ، غير أن صوتاً سـلبه من لذة الخيال وأنزعه عن مكانه فهب يرى ... وأحس كأن قلبه ينخلع من الذعر والخوف ، لأن ما سمع هو صوت طلقات نارية سريعة

ومتوالية تقترب منه رويداً رويداً . وأجال بصره فيما حواليه فما بداله غير شبح يداف إليه من الغابة يتكفأ فى طريقه ، ويتحامل فى مشيته ، من أثر الأين والتعب ، والدم يتقاطر أرسالا من فخذه

لاجرم ، فهذا مجرم انسل ، والليل ساج ، إلى المدينة ؛ فانحط عليه الجند ، فأساس وانقاد بعد لأى ثم وجد مهرباً فأفلت يريد الحرية ويحطم قيود السجن وهى تنتظره على خطوات ؛ وهم على أثره لا يصيبهم الجهد ، ولا ينال منهم النصب ، يعطرونه بوابل من بنادقهم ، وهو يدفعهم عن نفسه بالرصاص والهرب فى وقت معاً

لقد كان ضخم الجثة ، حيوانى المظهر ، زرى الهيئة ، رث الملابس ، كث اللحية مرسلها ، أشعث أغبر يبعث فى النفس الفزع والرعب ، غير أن الاعياء تركه محطماً ضعيفاً

ثم انتهى إلى الصبى ، ووقف بازائه يطلب إليه أن يجد له منفذاً « إننى جيانيتو سانبيبروا ؛ إن الشرطة على أثرى ، وأنا لا أستطيع الهرب ، أفلا أجد فى دارك ملجأ ؟ » وأشاح الطفل عنه — بادى ذى بدء — وأبى عليه بعض ما طلب ؛ فراح الرجل يهدد ويتوعد ، غير أن الطفل كان يرى ما يقاسى من ألم وما أصابه من كلال فقفز بعيداً وهو يقول : « لا بندقتك تستطيع أن تصل إلى لأنك تفتقر إلى الذخيرة ، ولا حربتك تنال منى مأربا لأننى فى حصن منها حصين ! » وأحس الرجل بعاقبة أمره فاندفع يستعطف الصبى فى ذلة ، ويترضاه فى لين ، ويلوح له بقطعة فضية من النقود يداعبها بأصابعه ؛ فاستيقظت الشفقة والرحمة فى قلب الصبى ، ورأى فى قطعة النقود أجر ما يقدم من خير فتعلق بها بصره ... ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة رقيقة وهو يدس القطعة فى جيبه ، ويهيل التبن على المجرم الجريح ؛ ثم انطلق يمحى آثار الدم فى دقة ومهارة ؛ ثم استلقى أمام الباب كأن شيئاً لم يكن ..

* * *

وجاء الشرطة — بعد حين — وعلى رأسهم ضابط ... إنه هو تيودورو جامبا ابن عم فورتناتو ، وهو فتى يفور قوة ونشاطاً ، يتقصص المجرمين والجناة لا تأخذه بهم رأفة ولا شفقة ، ويتقفى آثارهم فى غير هوادة ولا لين ...

وابتسم الضابط وهو يسير إلى ابن عمه فورتناتو يسأله خبر المجرم الفار : « أوما رأيت رجلاً يمر بك الساعة ؟ » قال الصبى : « آه نعم ، رجل يمر بى الساعة ! » قال الضابط : « نعم رجل ذو لحية طويلة ينزف الدم من فخذه » قال فورتناتو وهو يعبث بابن عمه : « نعم ، تذكرت ، إنه الفس ، لقد كان يعطى صهوة جواده الجميل بيرو . . . » وثار غضب الضابط أن رأى الصبى يهزأ به ، فقال : « لقد رأيته ، فأين هو ؟ قل أيها الخبيث وإلا . . . » وراح الصبى يسخر من الضابط : « أفترانى أستطيع أن أراه وأنا نائم فى هدوء ؟ » ، فقال الضابط المغيظ فى شدة : « قل أيها اللعين ، إنه مر بك الساعة ! » ، وأجاب الصبى وهو يبسم فى تهكم : « أنا فورتناتو ، وهذه دار أبى ماتيو فالكونى ، أفتريد أن تستجم ؟ »

ونفد صبر الضابط ، فاندفع فى حنق يأمر الشرطة : « إلى الدار أيها الرفاق ، فلا بد أن يكون هذا الشيطان قد خبأ المجرم ! » . وانطلق الشرطة يصدعون بما أمروا ، وأمسك الضابط بأذن الصبى عنفه وهو يتململ ويصيح : « إن أبى ماتيو فالكونى لا يرضيه أن يدخل جماعة من الأغراب داره وهو

غائب ! » ، وراح الضابط يهدد الصبي : « أولى لك فأولى ! أفلا تعلم أنني قادر على أن أحملك إلى كورت أو إلى باستيا فألقي بك في غيابة السجن ترسف في أغلال من حديد ، ثم أضع رقبتك بين حدي المقصلة جزاء ما فعلت ؟ » ، وأغرق الصبي في الضحك لما سمع . . .

وارتد الشرطة بعد أن وجدوا الخيبة والفشل وجاء واحد منهم إلى الضابط يقول : « لم نجد أحدا فلنلتمس طريقاً غير هذا ! »

وبدت الدهشة على وجه الضابط جامدا حين خيل إليه أنه مني بالاخفاق ، واضطرب حين لم يجد الطريق إلى فريسته . إن الدار أمامه ، وهو يستطيع أن يرى كل ما فيها في نظرة خاطفة ؛ فما هي غير حجرة واحدة عارية عن الأثاث ، لقد سيطر عليه الارتباك ، والصبي إلى جانبه يداعب قطته ويبسم لما هم فيه من حيرة

ياضيعة المجهود ، ويا خيبة الأمل ! لقد هموا يريدون الرجوع بعد ما بذلوا من جهد ، وما لاقوا من عناء ، غير أن عيني الضابط لمعتا حين بدت له بارقة من أمل . لقد تهدد الصبي فما أجدى التهديد ، وتوعده فما أغنى الوعيد ؛ فليطرق باباً غير هذا عله . . . فالتفت إلى الصبي : « فورتناتو ، لقد ظننت بك سوءا ، ولكنني وجدتك شجاعا ذكيا ، ليتك تصحبني ! » قال فورتناتو وهو ما يزال يعبث بأبن عمه : « جامبا ، أسرع إلى عملك وإلا اختفى جيانيتو فلا تعثر عليه أبدا ؟ » وأخرج الضابط ساعته الفضية وهو يقول : « أفلا تريد أن يكون لك مثل هذه الساعة ، فتمشي الخيلاء بين رفاقك في شوارع المدينة ، وقد علقت في صدرك كأنها وسام ، والناس من حولك ينظرون ويعجبون ، ثم يتدافعون نحوك يسألونك : « كم الساعة ؟ » وأنت تبسم . . . وبدا للضابط أن عيني الطفل قد انبعث منهما شعاع من أمل ، وشعاع من طمع ، وهو يحدج الساعة بنظراته ، ويقول : « لا ، لا أريد ، إنه حين تكبر سني سيعطيني عمي القائد ساعة أجمل من هذه » قال الضابط : « حقاً ، غير أن لابنه ساعة كهذه ، وهو أصغر منك سناً » ، وخيل إلى الصبي أن الضابط يسخر منه ليستدرجه فقال : « أفتهزأ بي ؟ » قال الضابط وهو يقدم الساعة إليه ، وقد عاد إليه الأمل مرة أخرى : « ها هي ذه فخذها ، ثم أخبرني أين هو المجرم جيانيتو ؟ » ، وتقدم الصبي في هدوء نحو الساعة رويداً رويداً وهو يراها وهاجة براقة ؛ تحت أشعة الشمس ، تخطف البصر ، ثم أمسك بها بقلبها بين يديه ، وقد استبشر وانبسطت أساريره ، ونفسه تحدثه : « ألق بقطعة النقود إلى صاحبها ، وخذ هذه فهي أغلى وأثمن ! » ، واصطرعت في نفس الصبي عوامل الوفاء والجشع ؛ أفيخون عهده وينقض مواثيقه ؟ ولكن الساعة .. الساعة ! أفيفقدها بعد إذ احتوتها يداه ؟

وغلبه الحرص والطمع وحب المال جميعاً ، وهو قبالة ابن عمه الضابط ، ومن خلفه كومة التبن ؛ فرفع يده في هدوء يشير إلى الوراء ... إلى كومة التبن ...

* * *

وتدافع الشرطة يبعثرون كومة التبن هنا وهناك ، فانفرجت عن جريح لا يستطيع أن يحمل نفسه ، وفي لمحة البصر نزع الشرطة عن جيانيتو بندقته وحربته ، وشدّوا وثاقه ؛ غير أنه استطاع أن يدير بصره نحو الصبي ، ومن حجاجيه شرر

يتطاير ، ثم بصق وهو يقول : « أيها الس ... ! » وألقى الصبي بقطعة نقوده ، وچيانيتو فى شغل عنها يقول للضابط : « عزيزى جامبا : إننى لا أستطيع السير ، فسترغمون على حملى ! » ، وشمخ الضابط بأنفه فى كبرياء ، وصعّر خدّه فى صلف ثم قال : « إن نشوة الانتصار ، ولذة الفوز يبعثان فىّ قوة أستطيع بها أن أحملك وحدى على كتفى حتى نبلغ المدينة »

وتفرق الشرطة ، فبعض يأسو جراح چيانيتو وبعض يهيئ له سريراً من قش ، والضابط بازائهم ينظر ... وعلى خطوات الصبي فورتناتو يداعب ساعته فرحاً متهالاً ... وبينا كل فى عمله لا يبى ولا يتباطأ هبط ماتيو فالكونى وزوجته ...

* * *

ووقف ماتيو فالكونى حائراً لا يدرى مما حواليه شيئاً ، ولكن جامبا اندفع يقص القصة ويثنى على فورتناتو ، ويشكر ما أسداه إليه من خير ، واستطرد فى حديثه : « إن هذا المجرم الأثيم قد دفعنا عنه فى قوة وشدة ، ثم اندس فى التبن ، فما استطاع واحد أن يستشعر وجوده ، ولولا فورتناتو ... » ، وصاح الأب والأم معاً : « فورتناتو ! » ، قال الضابط فى هدوء : « نعم ، لولا فورتناتو ما استطعنا أن نعثر عليه ، ولذهب فى الهباء ما عانيناه من شدة وما بذلنا من جهد . سأخبر عمه القائد ليرسل إليه جائزة سنية ، وسأسجل اسمك واسمه فى التقرير الذى أرفعه إلى النائب العموى » ، واستشعر الأب شدة الصدمة فصدع قلبه حين بدا له أن ابنه باع شرفه بالثمن البخس ، فصاح من الأعماق صيحة خافتة كأنها صدى خفقات قلبه المكلوم : « يا للخيبة ، يا للخيبة ! » ، ثم التفت فوجد چيانيتو ماثل على سرير من قش ، شُدّ إليه فى غير رفق ولا لين ، وثبت بصره على الرجل فما استطاع أن يحوله وفى رأسه الأسى والأسف ، وفى وجهه العبوس والحزن ، وفى عينيه اللوعة والحسرة ؛ فرأى الرجل يدير بصره نحو الدار فيبصق ويقول : « هنا ، هنا دار الخائنين السفلة ! »

أى امرئ تحدثه نفسه أن يهين هذا الرجل القورسيقى وهو يضن بكرامته أن تثلم ، ويصون شرفه أن يمتهن ؟ ويل له ... ويل لمن تنفرج شفتاه عن كلمة يستشعر منها ماتيو بالاهانة والسخرية إن طلقة واحدة من بندقيته ، أو رمية واحدة من حربته هى العقاب الوحيد لمن يفعل ! ثم هو لا يطمئن خاطره أو يهدأ باله إلا أن يغسل الاهانة بدم المتبجح الجرىء ! ولكن ... ولكن ما ذا يفعل وابنه هو الذى ثلم عرضه ولوّث شرفه ؟ لقد أحس بوخزات الألم تحز فى قلبه ، ورأى الفضيحة والعار فيما فعل ابنه ، فوضع يده على جبينه المتسعر والهموم تتنازعه ...

وأراد الابن أن يترضى الرجل المسكين حين رأى ما ارتسم على وجه أبيه فولى وجهه شطر الدار ومشى يثاقل ثم عاد وبين يديه وعاء ملئ لبناً وقدمه فى ذلة وخضوع الى چيانيتو ، غير أن الرجل صرخ فى وجهه : « تنح ، تنح أيها الـ ... » ثم التفت الى شرطى الى جانبه يطلب اليه ماء ... لقد شرب من يد الشرطى وهو كان — منذ فترة — يصب عليه وابلا من رصاص ؛ أما ابن ماتيو ... ماتيو فالكونى ...

* * *

وانطلق الضابط والشرطة يحملون المجرم الى

المدينة ، وماتيو وجيوزيبا فى مكانهما مطرقين وقد اربد وجههما . والصبي بينهما يردد بصره فى وجه أمه حيناً وفى وجه أبيه حيناً آخر وقد ذهل عن نفسه . ثم نظر الأب الى ابنه فى قسوة وقال فى صوت أجش كأنه قصف الرعد : « حسن ما فعلت ! » وصرخ الصبي فزعاً : « أبى ، أبى ! » ثم انطلق يجثو عند قدمى أبيه والعبرات تتناثر من محجريه تسأله العطف والرحمة ؛ فصاح الأب : « تنح ، تنح أيها النذل ! » فجمد فى مكانه

ورأت الأم طرف السلسلة يتدلى من جيب صديرية الصبي فقالت : « أنى لك هذه ؟ » قال : « أعطانيها ابن عمى جامبا » فنزعها الأب فى شدة وألقى بها فى عنف على صخرة فتحطمت قطعاً قطعاً وهو يقول : « هذا هو أول خائن فى أسرتنا ! »

وانهمرت عبرات الطفل مرة أخرى ، وماتيو يحدجه بنظرات قاسية ملتهبة ، ثم صار فى صمت نحو الغابة وبندقيته على كتفه ، ثم . . . ثم نادى الصبي فتبعه وهو يبكى ؛ وانطلقت جيوزيبا على أثرهما وقلبها يضطرب ، والأرض تكاد تميد بها من فرط الشجن ؛ وأمسكت بذراع زوجها تستعطفه « ماتيو ، ماتيو ، إنه ابنك » فقال الرجل فى غيظ « ارجعى ، ارجعى ! إنه ابنى وأنا أبوه ! » فراحت المرأة تضم ابنها اليها فى قوة كأنها تريد أن تنتزعه من بين يدى أبيه ، وهى تذرف الدمع السخين . وعادت الى الدار تجثو عند رسم العذراء ، و تصلى فى خشوع وضراعة

وفى قلب الغابة ، عند صخرة كبيرة ، وقف الرجل ثم نادى ابنه : « تعال ، تعال هنا يا ولد ، اركع واقرأ صلواتك ! » غير أن الصبي اندفع نحو أبيه : « أبى ، أبى لا تقتلنى ! » فزأر الرجل زئيراً دوى له المكان وتزلزلت منه قوة الصبي « اقرأ صلواتك ! » فامتثل الصبي مرغماً . ثم رفع رأسه بمدحين ، وفى عينيه العبرات ، فقال الرجل : « هل أتممتها ؟ » فهفا الصبي نحو أبيه « آه ، أبى ! أبى لا تقتلنى ! الرحمة يا أبى والصفح ! لن أعود لمثلها . سأطاب الى عمى القائد أن يعامل سجينه بالحسنى . أبى لا تقتلنى ! ! إننى ابنك ؛ لقد أخطأت فأرجو الغفران والشفقة ! » ثم اندفع فى حديثه يابن ما قسا من قلب أبيه ، ولكن الأب كان قد صوب إليه بندقيته وهو يقول : « فليسامحك الله »

وأراد الصبي أن ينكب على قدمى أبيه يقبلهما ، غير أن المنية لم تمهله .. لقد دوت الرصاصة فاستقرت فى قلب الطفل فخر يتلوى ويتخبط فى دمه المتفجر وهو يئن : « آه ، آه ، آه يا أبى ! »

وقفل ماتيو راجعاً دون أن يلقى نظرة واحدة على جثة الصبي الهامدة

* * *

وسمعت الأم — وهى راكعة تصلى عند تمثال العذراء — دوى الطلق الناري فانشقت كبدها أسى ولوعة ، وتمزق فؤادها جزعاً على ابنها وأهلها ، حين بدا لها أنها فقدته إلى الأبد ؛ ثم انطلقت فى جنون الثكلى تمزقها المصيبة عركا . وعلى خطوات من الدار رأت الأب يعود مطرقا ذاهلاً ، تتوزعه الهموم وتتناهبه الأحزان بعد أن نفذ القضاء ، فاندفعت إليه وهى تصيح : « ابنى ! ماذا ، ماذا فعلت ؟ » فأجاب الرجل فى صوت خافت ضعيف فيه أنّات المفئود : « العدل ، العدل يا عزيزتى جيوزيبا ! » قالت : « وأين هو ؟ » قال : « هناك هناك فى المنحدر ، سأدفنه . لقد مات سأستغفر له ربى ! »

كامل محمود حبيب

كان السائر بمحاذاة التل الشرقي لا يكاد يسمع رفيقه الذي يسير والتل الغربي ، فقد كانت الأصوات تغيب وتختفي في مداخن البلدة التي تفصلهما . أما في الليل فقد كان سكان تلك البلدة يسمعون أولئك الفلاحين الذين يملأون الجو غناء وصفيراً . وقد اتخذ الناس هذين التلين طريقاً للوصول إلى البلدة . ففي ذات مساء قبل أن يربد لون الشفق ركب رجل نعليه وأخذ يتدحرج من ذلك التل الشرقي إلى البلدة وقد حمل في يده حقيبة صغيرة ومظلة ، ولكنه لم يكد يمضي في طريقه حتى سمع صوتاً يقول : « مرحى « دون » ! أهو أنت ؟ » ثم وقف الشاب الأنيق المنرف بعربته وقال : « هيا اصعد حتى تصل إلى دارك »

فالتفت الرجل إلى مصدر الصوت فحيا صاحبه مبتسما وقال : « أشكرك يا سيد بارنت » ، ثم ركب معه

كان بارنت أكثر غنى وأنعم عيشاً من صاحبه « دون » المحامي الناشئ ، إذ كان أبوه من كبار تجار الصوف فاستطاع أن يجمع ثروة طائلة أصاب الابن بعضها بجانب ثقافة عالية وخلق سمح كريم . ثم أخذ الصديقان يتحادثان فقال « دون » :

— كيف حال مسز بارنت ؟

— بخير

— لقد فاتني أن أهنئك على نجاحك في انتخاب المجالس البلدية الأخير حتى أن زوجي كانت عازمة على تهنئة مسز بارنت

— يسرنا أن تراكما أنا وزوجي في أي وقت تشاءان

— ولكن خبرني يا سيد بارنت لم تفكر في بناء بيت جديد وبيتك الذي أنت فيه الآن فسيح جميل ، فصمت بارنت قليلاً ثم قال : حسن ؛ إنا نريد أن نعيش خارج البلدة ، ثم إن بيتي الآن قد قدم

ثم أخذت العربة تنهب بهما الأرض حتى وصلا أخيراً إلى البلدة فوجدا الشوارع لا تزال تفيض بالناس والمصابيح تلقي بأنوارها على واجهات الحوانيت ، فلما أتيا المنزل أسرعت الزوجة والأطفال إلى الباب يستقبلون رب البيت بعد غياب النهار كله

فلما رأى بارنت هذا صاح مبتهجاً : « إنك لا شك سعيد يا « دون » بهذه الزوجة وهؤلاء الأطفال ، كم أود أن يكون لي بيت كهذا » .

فأجابه دون مبتسما : « حسن . نعم إنا نعيش هنا عيشة هادئة مطمئنة » . فقال بارنت وهو يحاول إخفاء الشعور بالمرارة والألم : « إن بيتي

الذى أقيم فيه صالح لى كما تقول ، فقد بناه جدى منذ عهد بعيد ونشأ فيه والدى وقد ولدت فيه أنا وقضيت فيه سنى شبابى ولكنى أشعر الآن بالحاجة إلى منزل جديد »

— لماذا ؟

— سعياً وراء الهدوء ، إنى أطلب السعادة فلا أجدها

ثم هم «دون» بالدخول فتعثر فى الظلة والمحفظة فزلت قدمه وهوى على ركبتيه ، فأسرعت اليه زوجه ، وقد تجاهلت وجود بارنت وأعانته على الوقوف ثم قبلته قائلة : أرجو ألا يكون قد أصابك شىء يا عزيزى » . أما الأطفال فقد أحاطوا بوالدهم وهم يصيحون : « بابا ! بابا ! » فقال بارنت وهو يدير عينيه بين الزوجة والزوج : لا بأس ، ثم حياها وانصرف ، وقلبه يتلفت إلى تلك المرأة !

عاد بارنت الى منزله فلم يجد زوجه إذ علم من الخادم أنها ذهبت الى « الخياطة » . فصاح الرجل متعجباً : « أى خياطة فى مثل هذا الوقت ؟! »

— لقد تناولت غداءها وخرجت وهى تعتذر لك عن صحبتها هذا المساء

— ولكنها كانت تعلم بمجيئى الليلة

— نعم ياسيدى

— اذهبى اليها وأخبريها بأمرى

ثم جلس بارنت إلى المائدة يتناول عشاءه فى تراخ وكسل ، وسرعان ما تذكر صديقه « دون » وحياته السعيدة ثم أخذ يقارن بين الحياتين ، ثم نهض أخيراً وقد امتلأت نفسه حنقاً وداف الى الخارج ، وكانت الشوارع لا تزال تفيض بالأنوار تحييه كلما أبصر اسم أسرته على إحدى واجهات الحوانيت ، فذكرته هذه المناظر بما كان عليه والده من مجد وشهرة . ثم مضى فى طريقه حتى وصل الى منزل صاحبته « لوسى » . فلما رأته اندفع الدم الى وجهها وألقت عليه نظرة كلها دهشة واستخفاف ؛ فلما رأى بارنت منها هذا قال : « إنى أعرف أنه ليس لى عمل هنا ، ولكنى شعرت برغبة قوية الى رؤيتك والاطمئنان عليك . هل لك أن تمنحينى يدك لترى كم من مرة أمسكتها »

— إنى أفضل أن أنسى الماضى لا أن أذكره فانى لا أجد فيه ما يستحق الذكر أو يسمح لك بالمجىء الى هنا

— ولكن ليس فيه ما يؤلم . انى لا أضايقك كثيراً يا « لوسى »

— إنى لم أتشرف حقاً بزيارتك من مدة ، ولكنى لم أكن أنتظرها الآن . أرجو أن تكون مسز بارنت بخير

— نعم . نعم . أو على الأقل أظن هذا

— كيف هذا وهى زوجك ؟

وفى هذه اللحظة أيقظت كلمات ذلك الزائر الفضولى « كناريا » كان ينام فى قفصه ، فهب الطائر مذعوراً وأخذ يضرب القفص بجناحيه ، فذهبت إليه لوسى ودنت منه وتمتمت ببعض الكلمات . فسكن الطائر إليها وعاد إلى هدوئه الأول . والحقيقة أنها عمدت هذا لتريح نفسها من عناء الحديث مع ذلك الضيف

ثم استطرد الرجل قائلاً :

« إنى لم آت لأتحدث عن مسز بارنت بل أتيت لأتحدث عنك أنت وحدك ولأقف على حالك منذ ذلك المصاب العظيم » . قال هذا وهو يلتفت

إلى صورة أبيها التى كانت معلقة على الحائط

— لا بأس ؛ أشكرك

— ماذا كنت تعملين عندما جئت إلى هنا؟ أتطرزين الأزهار ؟ — وعلى ضوء الشمعة ؟

— كنت أعمل الحواشى فقط . أعمل هذا ليلاً توفيراً للوقت . فانى ملزمة بانجاز ثلاثين غطاء فى نهاية هذا الشهر

فنظر إليها بارنت وقال بصوت المشفق عليها : « حرام أن تجهدى عينيك هـذا الاجهاد — لا . إنى أفضل العمى على أن أرى هذا بعينى »

فصاحت لوسى فى وجهه : « وهل هذا هو الوقت والمكان اللذين تذكر فيهما هذه الأشياء — لقد اعتدت أن تحترمنى وتحترم نفسك . أرجو ألا تنطق بمثل هذا الكلام وألا تأتى إلىّ ثانية . فانى لا أظن أن زيارتى ذات بال عندك »

— ذات بال ؟ لقد أتيت لأرى صديقاً قديماً عزيزاً — لا لأن أذكر هذه الأشياء . ولقد أتيت لزيارة المرأة التى أحب ؛ فلا تغضبى ، فانى لا أستطيع أن أمنع هـذا . إن كثيراً من الأشياء قد دفع بى إلى هنا — فقد حدث فى هذا المساء أن قابلت صديقاً ، فلما رأيت ما ينعم فيه ذلك الصديق من حياة منزلية هانئة ، مع أن إيراده لا يصل إلى عشر إيرادى استولى علىّ شعور غريب دفعنى إلى هنا . آه إنه مصيرى الذى ساقنى إلى هذا . إنى لا أعرف كيف أفلت منى . فقد كنت المرأة التى كان يجب أن تكون زوجتى ، ولكنى تركتك تفلتين . يالى من أحمق !

فأجابته لوسى ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع : « لا تثر هذا الموضوع من جديد . إنى مخطئة أن أشاركك هذا الحديث . يجب ألا تأتى إلى هنا . إنى أخشى الفضيحة

— حقاً . ليس لى حق فى هذا ، سوف لا أعود ثانية

— إنه لمن حق الطبيعة البشرية أن يظن الانسان أن الطريق الذى لم يسلكه هو الأصوب . فتندم الآن قبل أن تعرف إذا كنت أرضى بك زوجاً

وفى هذه اللحظة التقت عيناها بعينيه فلم تقوَ على النظر إليه وخانها صوتها ، ثم صمتا برهة ، وأخيراً استأنفت لوسى كلامها فقالت : « إنى دونك جاهاً ومالاً . لذلك لم يكن أمر زواجنا ميسوراً ، والآن أرجو أن تتركنى »

— أجل ولكنى لن أقابل فتاة أعزّ منك .

ثم مضى

وفى اليوم الثانى جاء « دون » لزيارة صديقه بارنت فلم يكد يدخل البيت حتى رأى مسز بارنت خارجة من المنزل ، فالتفت إلى صديقه وقال : « أود أن يصلح أمركما قريباً »

— إذن لقد سمعت بنبأ الانفصال الأخير ؟

فحاول « دون » أن يخفى سروره فى قلبه بأن قال وهو يتظاهر بالأسف : « لا . لم أسمع عن شىء مهم . لكن لدى بعض أخبار غامضة عن ذلك »

— قد تظن أن الأمر تافه ، ولكنى أرى فيه غير ذلك ، والآن كيف حال زوجك وأطفالك ؟

— بخير أشكرك ، فقد خرجوا اليوم كلهم للنزهة . إنك عصبى المزاج يا سيد بارنت ، وإنى لأذكر أيام التلمذة ، وكيف كنت تثور إذا مامس أحد شعورك بكلمة

— أجل إنك مصيب يا صاحبي ، وهذا راجع إلى أني أطلب دائماً الهدوء في المنزل فلا أجده ، فلو أني ظفرت به لهان عليّ كل شيء آخر

— لقد فكرت أكثر من مرة في إصلاح ما بينك وبين زوجك ، ولكني لا أدري إذا كانت هذه الفكرة تروقك ، على كل حال سأعرضها عليك ولك أن تأخذ بها أو تتركها ، والحق أن زوجي هي صاحبة الفكرة ، فقد رأت أن تذهب إلى مسز بارنت وتتفاهم معها . إني واثق من أنهما ستصلان إلى نتيجة مرضية . فان زوجي لها قدرة عجيبة على كسب بنات جنسها

— وبني جنسها أيضاً ، إنها امرأة ذكية الفؤاد عظيمة التأثير ، وإنك لحسن الحظ بها

— قد يكون هذا ، إن زوجي مستعدة للقيام بهذه الوساطة إذا وثقت أنها جديرة بمركز مسز بارنت الاجتماعي

— إني أشكرك كثيراً ، ولكني أخشى ألا تصلا إلى نتيجة ، ثم حياه وانصرف

وفي ذات يوم كانت السيدتان راكبتين قارباً صغيراً يقطع بهما عرض النهر جيئة وذهوباً . بينما كان السيد بارنت في طريقه الى منزل « لوسي »

كانت « لوسي » في حديقة المنزل تقطف بعض الأزهار عندما دنا منها بارنت ، فلم تكد تراه حتى قالت له في ابتسامة عذبة رقيقة وهي تمد يدها الى إحدى الزنابق الحمراء : « لقد ذكرتك كثيراً يا سيد بارنت منذ أن تركتك زوجك ، وها أنت هنا . . .

— نعم « لوسي »

— الى أين أنت ذاهب الآن ؟

— الى الميناء

— طبعاً . لقد بدأت طلائع الصيف وأخذ الناس يهرعون الى الشواطئ

— لوسي . أراك اليوم ضامرة العود ، شاحبة الوجه — خبريني هل يمكنني أن أساعدك . إن الجو اليوم صفو والهواء رخاء عليل

ثم مضى ، ولكنه لم يكد يذهب بعيداً حتى هبت عاصفة شديدة غيرت وجه الطبيعة ، فبدت مخيفة غاضبة ، وعندما وصل إلى الميناء تقدم إليه أحد البحارة وهو يقول : «خطب عظيم يا سيدي»

— ما هذا يا رجل ؟

— لقد ركبت اليوم سيدتان هما مسز بارنت ومسز دون أحد القوارب طلباً للنزهة ، ولكنهما لم يبتعدا عن الشاطئ كثيراً حتى هبت عاصفة شديدة أطاحت بالقارب بعيداً فانكفأ على من فيه

— أين ؟

— أسرع إلى تلك الصخرة واطلب من ذلك الصبي الواقف هناك أن يدلك على مكان الحادثة

— وهل أنقذت السيدتان ؟

— لقد أنقذوا واحدة

— مَنْ ؟

— مسز بارنت ، أما مسز دون فيخشى أن تكون قد غابت في جوف النهر ، فأسرع بارنت إلى مكان الحادث فرأى جمعاً من الناس قد تجمهروا هناك ، فنفذ وسط ذلك الجمع ، وهناك رأى امرأة ملقاة على الرمال يعلو بدنها ثوب بنفسجي وفي يديها قفاز أصفر فعرف أنها زوجه

عاد الرجل بزوجه إلى المنزل ودعا إليها بعض

الأطباء ، والغريب فى أمر هذا الرجل أنه شعر أن حبه لزوجه هو الصلة الوحيدة التى تربطه بالحياة ، ثم أسرع إلى صديقه دون فى مكتبه ، وما كاد يفضى إليه بذلك النبأ الفاجع حتى هب الرجل مذعوراً وبقى واقفاً لا يدرى ما ذا يعمل ، وفجأة أجهش بالبكاء فجذبه بارنت من يده وذهبا معاً إلى الميناء ، حيث بقيا زمناً ينتظران إخراج الجثة ، ولكن النهر كان لا يزال هائجاً فلم يعثر الغواصون عليها ، فعاد بارنت إلى منزله تاركا دون مع بقية الأصدقاء يرقبون الغريقة ، فلم يكد يخطو عتبة الدار حتى وجد الطبيب خارجا ، فقال له : « خير »

فأجابه الطبيب : « قد عملنا جهدنا ، ولكننا لم نصل إلى نتيجة ، إنى أشاطرك هذا المصاب »

فلم يقدر الرجل شعور ذلك الطبيب كثيراً ، إذ ظنه يتهكم به ، ولا سيما وأنه كان واقفاً على النزاع الأخير ، ثم أردف الطبيب قائلا : « أرجو يا سيد بارنت أن تنتهى من ذلك الأمر قريباً »

فأجابه بارنت قائلا : « دعك من هذا الآن ، وامض إلى الميناء فقد يكون الليد دون فى حاجة اليك » ، ثم دخل المنزل فرأى الخدم خارجين من غرفة زوجه ، وقد بدا عليهم الحزن واليأس ، فأسرع إلى الغرفة ووقف صامتاً برهة وهو ينظر إلى السرير ، ثم مضى إلى غرفته الخاصة وظل يقطعها فى خطى متئدة ثقيلة ، وقد شعر أن كل شىء قد مات فى هذا البيت ، فلم يعد يسمع همساً أو نفساً . فذهب إلى النافذة وأخذ يسرح نظره فى البلدة الصاخبة ، فرأى الدخان يتصاعد من إحدى المداخن البعيدة ، فأدرك أن لوسى تهيأ لعمل الشاى كعادتها . ثم عاد إلى غرفة النوم فأخذ ينظر إلى زوجه المسجاة فى صمت وذهول ؛ لقد كانت تكبره بسنوات ، ولكنها لم تخط بعد سن الشباب ، فأخذ يتفرس فيها ، فرأى قسمات وجهها أكثر فتنة وسحراً ، ورأى ثغرها الدقيق وشفتيها الرقيقتين قد التصقتا ، وجبينها المشرق الوضاء يموج فوقه شعر أسود جميل ، فصاح متعجباً : « إن هذا الجمال لن يموت ! ! »

ثم عاد ثانية إلى النافذة فرأى الدخان لا يزال يتصاعد من المدخنة فى بيت صديقه ، ورأى « الكنارى » لا يزال فى القفص ، فهجمت عليه الذكريات القديمة ، وأخذ يفكر فى زوجه ولوسى ونفسه

قضت الزوجة أسبوعا طريحة الفراش ، ثم فاضت روحها بين يدى زوجها ، فأسرع الزوج إلى إعداد الجثة ومواراتها التراب ، ولكنه لم يكد يهم بالخروج حتى دخل عليه خادمه بخطاب من صديقه « دون » يقول فيه :

عزيزى بارنت :

رأيت من الأفضل أن أعلمك بأنى سأتزوج من « لوسى » على رغم أنى لم أعلن هذا بين أصدقائى نظراً للحداد ، وعلى ذلك ستكون هناك حفلة خاصة ، ولكنى أود أن تشهدها وأن تصحبنا إلى الكنيسة فى الساعة العاشرة . ما ؟

أخذ بارنت يتلو هذا الخطاب مرة ومرة ، ثم وقف قليلا يفكر فى الأمر

لم يكن هذا الرجل بالواهن العزم ، الضعيف الارادة ؛ بل كان ذا قدرة عظيمة على احتمال الخطوب والصبر على المكاره ، فلم يهن له عزم أمام هذين الخطبين اللذين ألما به فى تلك اللحظة

ولم يكن أحد قد سمع بموت زوجه ، ولم يرد أن يخبر صديقه « دون » فى ساعة زواجه ، فقام باعداد كل شىء بنفسه ، ولما انتهى من ذلك أسرع إلى الكنيسة فرأى « دون » و « لوسى » ساجدين أمام الهيكل وحولها بعض الناس ، فتقدم إلى « دون » وهنأه ، ثم التفت إلى « لوسى » وهو يتوقع أن يرى فى عينيها بريق الاثم والندم ، ولكنه وجدها مأخوذة بالموقف الجديد ، فهنأها وانصرف ، فقال له « دون » :

— انتظر حتى تصحبنا إلى المنزل

فأجابه بارنت : « لا . لا . لست مستعداً لهذا . سأقف فى الخارج مع الواقفين حتى تركبا العربة الى المنزل — ثم أراقب ذلك الشعور الذى يغمرنى عندئذ . فضحك الزوجان ثم ابتسم بارنت وخرج

فلما انتهت الحفلة وركب الزوجان وانصرف المدعوون مضى بارنت فى خطى متعثرة وفكر شارد الى مدافن البلدة وهناك انحنى على قبر زوجه يرفه عن نفسه بالبكاء ثم عاد الى منزله وقد عزم على أمر عظيم

فلما استقر به المكان أرسل جملة رسائل إلى شركائه ثم دعا أحد المحامين وهو صديق قديم لوالده وطلب إليه أن يبيع له جميع أملاكه وأن يرسل اليه ثمنها

وفى اليوم التالى كان بارنت فى طريقه الى حيث تقوده قدمه

لكنه قبل أن يغادر البلدة أرسل إلى صديقه « دون » ينبئه بموت زوجه فى الساعة التى وافاه فيها خطابه الذى يعلمه فيه بزواجه من « لوسى »

* * *

إن عشرين عاماً لا تمضى دون أن تترك أثراً فى الصخر الجلمود أو المعدن الصلب ، ولكن هذه المدة وإن بدت طويلة فى عمر الانسان لا تذكر بجانب عمر الانسانية ، ولا تترك فيها شيئاً

وأخيراً بعد عشرين عاماً عاد بارنت إلى موطنه الأول الذى لا يحول عنه ولا يتحول . فرأى وجوهاً غريبة ومعالم جديدة ، ومضى يسأل عن شريكه القديم السيد « واتكنز » . فصادف ابنه فسأله عن والده فقال له الابن : « لقد مات أبى من مدة »

— آه يؤسفنى أن أسمع هذا — لقد تركت هذه البلدة من زمن بعيد

— ولكن هل الشركة قائمة للآن ؟

— أجل إنها لا تزال قائمة ، ولكن أسقط منها اسم بارنت . ذلك الاسم الخيالى الذى لا أعتقد أن صاحبه قد عاش بيننا وساهم فى هذه الشركة

— ألا يزال « أندروجون » يعمل مهندساً للشركة ؟

— أوه ! لقد مات يا سيدى

— وكيف حال قسيس كنيسة القديسة مارى مستر « مدروز » ؟

— لقد توفاه الله منذ سنوات عديدة

فصمت بارنت برهة وقال : « كيف حال مستر « دون » المحامى ألا يزال يعمل فى المحاماة »

— لا يا سيدى ، لقد مات منذ سبع سنوات

فصمت بارنت ثانية ، وشعر بقشعريرة تسرى فى بدنه ثم قال : « وهل مسز دون لا تزال على قيد الحياة ؟ » قال هذا وهو يكاد يقضم شفتيه بأسنانه

— نعم إنها لا تزال حية وتقيم فى المنزل القديم

— مع أطفالها طبعاً

— لا — ليس لها أطفال — إلا بنات زوجها « دون » من زوجه الأولى ، وقد تزوجن كلهن فهي تعيش الآن وحيدة

— وحيدة ؟

— نعم يا سيدى وحيدة

فشكره الرجل وانصرف ، ومضى إلى الفندق فتناول غداءه ثم ارتدى ملابسه وحلق ذقنه وخرج إلى بيت لوسى كما كان يفعل قبل ذلك بعشرين عاماً

فلما وصل إلى الدار وجد نوراً ضئيلاً ينبعث من إحدى الغرف ، والسكون يخيم على المنزل فدنا من الباب وقرعه فأسرع الخادم وفتحه وقال : « ما اسمك يا سيدى ؟ »

— صديق قديم

فمضى الخادم وأخبر سيدته بذلك . فقالت له : « ماذا يشبه ؟ »

فأجابها الخادم . « إنه رجل قد وخط الشيب فوديه »

فنهضت المرأة التى كانت يوماً ما الفتاة «لوسى» وقد ذبلت الوردتان اللتان كانتا على خديها وعرف الشيب طريقه إلى شعرها . ولكن عينيها لم تفقدا سحرهما وقوتهما ولم تستطع العشرون عاماً أن تذهب بكل ذلك الجمال وذلك السحر

— ألا تعرفيننى يا لوسى ؟

— لقد عرفتك منذ رأيتك — إنى لأعرف لماذا كنت أفكر دائماً فى عودتك — لقد قالوا إنك مت ، ولكن لم أصدق قولهم

— آه لقد مضى زمن طويل على لقائنا الأخير

— نعم . ماذا رأيت فى طوافك بجانب ما رأيت فى هذا المكان المنعزل . إنك تعرف أن زوجى قد مات منذ أمد بعيد وأنى أعيش وحيدة الآن اللهم إلا بعض زيارات من بنات زوجى مستر « دون »

— وقد أصبحت أنا شيخاً وحيداً

— أين قضيت هذه المدة الطويلة ؟ ولماذا اختفيت عنا فجأة ؟

— حسن يا لوسى ، لقد أقمت مدة فى أمريكا وزمناً فى استراليا . وسنوات فى الهند ، وفترة فى جنوب إفريقيا ، وهكذا فلم أمكث فى مكان واحد كما ترين

أما لماذا اختفيت فجأة فأنت تعرفين السبب . ألم تفكرى مرة ؟

— لا — لم أفكر — ولا أى واحد آخر قد فكر فى هذا

— حسن . فكرى الآن . ثم انظرى إلىّ وأخبرينى إن كنت لا تعرفين

فنظرت إليه لوسى فى ابتسامة رقيقة وقالت : « أظن أنه ليس من أجلى »

فهز الرجل رأسه وابتسم ابتسامة حزينة فقالت :

— ألأنى تزوجت « دون » ؟

— نعم ، وفى اليوم الذى أصبحت فيه حراً لأن أطلب يدك . إذ ماتت زوجى قبل ذهابك مع « دون » الى الكنيسة بعشر ساعات ، ولقد ذهبت إليكما عقب فراغى من الدفن

فألقت عليه لوسى نظرة كلها حب وعطف وقالت : « لم أفكر فى هذا ، ولكنى أعرف أنك أظهرت لى بعض الشعور الطيب مرة ؛ ثم إنى لم أتزوج إلا وأنا أعتقد أن زوجك لا تزال حية . أظنك فى حاجة الى الشاى . لقد اعتدت أن أشرب الشاى

بدلاً من العشاء منذ وفاة زوجى فهل تسمح وتتناوله معى ؟ »

فأظهر الرجل رغبته فى الشاى وسرعان ما أعد لهما . فجلسا يشربان ويتحدثان ثم أخذ بارنت يسرح بصره فى الغرفة وأخيراً قال :

— أرى تغيرا فى نظام الغرفة . ففى مكان « البيان » الآن كان يقوم بعض أوراق الحائط وبها بعض البطاقات والرسائل ، وفى ذلك الركن قرأت ذلك الخطاب الذى أرسله إلى دون منذ عشرين عاماً يعلمنى فيه بزواجه منك . فتركت المنزل ولم أعد اليه إلا الآن

— آه لقد فهمت كل شىء

ثم أوقد المدفأة واستأنفا الحديث ، وأخيراً قال بارنت : « لوسى ! إن بعض الشىء أفضل من لا شىء ، فان كان الوقت قد فات فان ما بقى فيه خير من عدمه . هل تتزوجين منى الآن ؟ »

فتراجعت المرأة مندهشة . ولكنها لم تكن تجهل الموقف تماماً ثم قالت :

— ماذا ؟ إنى لا أتزوجك ولو وهبتنى هذه الدنيا كلها

— حتى بعد هذا ؟

— لو أنى كنت أفكر فى الزواج لفضلتك على سواك ولكنى لا أفكر فيه الآن ولا بعد الآن

— ولكن ألا تغيرين من رأيك هذا ؟

— إنك لا تدرى ماذا تقول . إنى لا أستطيع أن أقول إنه كلام مضحك لأنى أراك تتكلم جاداً ولا أستطيع أن أصف الجد بالمزاح

— أجل إنى جاد . فقد فكرت فى هذا منذ شهرين وأنا فى مدينة « الرأس » لكنى أجد منك إغفاء وصداً . إنى أتكلم جادا

— وإنى أعارض فى أية فكرة فى الزواج

— حسن فلأنصرف ، ما دام الأمر كذلك .

ثم نهض يتأهب للخروج ، فأعانته على لبس معطفه وودعته حتى الباب

فقال لها : أسعدت مساء . أرجو ألا أكون قد أسأت إليك

— لا ، لا ، بل إنى أرجو منك هذا

فابتسم قليلاً وقال : « سأقلب أوجه الرأى وأرى فيما بعد . أسعدت مساء »

ثم راقبته حتى اختفى فى الطريق فعادت الى غرفتها وأوصدت الباب دونها ثم استلقت على فراشها وأخذت تستعيد صور ما حدث منذ لحظة . وكيف تلقى صاحبها ذلك الرفض فى ثبات وهدوء كأنه كان يعتقد أنه لا يستحق إلا هذا . لقد كان رجلاً فى هذا الموقف . بل كان أكثر من رجل . ثم نهضت الى المرآة وأخذت تتطلع فيها فرأت أنها لا تزال تحتفظ بكثير من جمالها القديم . ثم بدا لها رأى جديد

أخذت ترقب عودته يوماً بعد يوم ولكن كبرياءه أبت عليه أن يعود إليها . وقد أخبرها أنه يقيم بالفندق . فلما طال الانتظار ذهبت اليه تسأل عنه فقيل لها إنه غادر المدينة فى الصباح ولم يحتفظ بغرفته

— ألم يترك عنوانه ؟

— لا

فعادت الى منزلها ساهمة مهمومة موطنة العزم على الانتظار

فانتظرته الأيام والسنين ولكنه لم يعد

نظمى خليل

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثالث

الفصل الثالث

وكنت أتمشى ذات مساء عند مدخل القرية تحت ظلال الزيزفون فرأيت سيدة فتية تخرج من أحد المساكن المنفردة وكانت مقنعة ومرتدية أثوابا على غاية من البساطة ؛ غير أن قامتها الهيفاء ، وخطراتها الرشيقة استوقفتنى فاتبعتها بنظرى . وعندما وصلت إلى المرج كان هنالك جدى أبيض يرتمى منفرداً فلما رآها قفز لملاقاتها ، فأمرّت يدها على رأسه ، وتلفتت يميناً وشمالاً كأنهما تفتشان عن أوراق خضراء تقتطفها له ، وكان قربى شجرة من التوت البرى فقطعت منها غصناً ، وتقدمت به نحو الجدى فتقدم هو أيضاً نحوى ولكن بخطوات متمهلة ، حتى إذا دنا من الغصن وقف وجلا ينظر إلى صاحبته كأنه يتوقع صدور أمرها ، فأشارت إليه لتشجعه على الاقدام ، غير أنه لبث خائفاً حتى جاءت ووضعت أناملها على الغصن فاختطفه الجدى من يدى . والتفتت المرأة المجهولة إلى مسلمة وسارت فى طريقها ورجعت إلى البيت ، فدعوت لاريف ووصفت له المسكن المحاط بالحديقة الصغيرة عند مدخل القرية واستفسرت منه عن سكانه ، فقال : إن من يقطنه سيدتان إحداهما عجوز مشهورة بالتقوى والأخرى تدعى مدام بيارسون وهى السيدة التى رأيتها . ولما استعلمت عنها وعما إذا كانت زارت والدى من قبل قال : إنها تعيش منعزلة وإنه قليلا ما رآها عند والدى

ولم استرده إيضاحا ، بل عدت إلى تمشى الزيزفون وجلست على مقعده ، فاقترب الجدى منى يلاطفنى فشعرت بحزن عميق يستولى على ، ونهضت أرسل بصرى على الطريق التى كانت مدام بيارسون قد اتجهت اليها ، ثم اندفعت انخطاها وأنا ذاهل حتى توغلت فى الجبل

وكانت الساعة الحادية عشرة مساء ، عندما خطر لى أن أعود أدراجى ، ولكننى رأيت مزرعة قريبة منى فتوجهت إليها لأتناول فيها قدح لبن وقطعة خبز ، وكنت من جهة أخرى شعرت بنقط كبيرة تتساقط من الغمام منذرة بعاصفة شديدة ، فقصدت بيت المزرعة وطرقت بابه ، فما أجابنى أحد بالرغم من وجود نور فيه ، فتقدمت إلى النافذة ، وتطلعت فاذا فى الباحة نار مشبوبة والزارع الذى كنت أعرفه جالس قرب فراشه . وضربت على زجاج النافذة لأناديه فاذا بالباب يفتح فجأة ومدام بيارسون تطل منه سائلة : من الطارق ؟

وما كنت لأتوقع أن أرى هذه السيدة فما خفى عليها اندهاشى

دخلت الغرفة ملتمساً الالتجاء من المطر وإذ كنت أتساءل عن سبب وجود هذه السيدة فى هذا المكان فى مثل هذه الساعة المتأخرة ، سمعت أنيناً ، فأدرت وجهى نحو مصدره فاذا امرأة الزارع

منطرحة على سريرها ، وقد رسم الموت طابعه على وجهها

وقعدت مدام بيارسون تجاه زوج العليلة وقد انهدم فى جزعه وحزنه ، وأشارت إلىّ بعدم الاتيان بأقل حركة لأن المريضة كانت نائمة ، فأخذت مقعداً وجلست منتظراً مرور العاصفة

وكانت مدام بيارسون تنهض من آن لآخر لتقرب فراش المريضة ثم تعود لتقول للزارع بعض كلمات بصوت خافت . وكان أحد أطفال البيت قد اقترب منى فأجلسته على ركبتى ، فقال لى : إن هذه السيدة تجىء كل مساء لعيادة أمه وأنها تمضى الليل عندهم بعض الأحيان لأنها كانت تعتنى بالمريضة لعدم وجود راهبات فى هذه الأنحاء ، وأضاف الولد إلى هذه المعلومات قوله بصوت جد منخفض : — ليس من ممرضة سواها ولا طبيب عندنا إلا الطبيب الجاهل ... أما هى فتدعى بريجيت الوردية ، أفلا تعرفها ؟

فقلت : لا ولكن لماذا يلقبونها بالوردية ؟

فقال : لا أدرى ولعلها احتفظت بهذا اللقب منذ كانت بائعة ورود

وكانت مدام بيارسون نزعت قناعها ، ولما نزل الولد عن ركبتى نظرت إليها ، فاذا هى واقفة أمام سرير المريضة تقدم لها كأساً لتشربها وقد انتبهت هذه المريضة من نومها ، وكانت الممرضة شاحبة الوجه ممتقعة اللون ذات شعر أشقر يضرب إلى الرمادى ؛ وما أدرى ما أقول عن جمالها غير أننى حين رأيتها تحدق بعينيها السوداوين بعينى المريضة ، والمريضة تعلق أبصارها بها ، رأيت بين لحظات هذا الاحسان وهذا الامتنان نوعاً من الجمال يقصر عن وصفه كل بيان

واشتد انهمار المطر وغرقت الحقول المقفرة بالظلام تمزقه من حين إلى حين بروق خاطفة تتبعها قمقمة الرعود ، فكان زئير العاصفة وأزيز الريح وثورة العناصر خارج الكوخ يزيد رهبة مافى داخله من صمت خاشع ، فيبدو المشهد أمامى أشد روعة فى قدسيته

وكنت أجيل الطرف فيما حولى على الجدران الحقيرة ، وزجاج النوافذ تقرعه الأمطار ، والضباب الكثيف تقذفه العاصفة كالدخان ، فأرى يأس الزارع فى جزعه الجامد ، وزعر الأطفال ، وهذه المدنفة تحاصرها كل هذه العناصر الثائرة الصاخبة ، وأرى قربها على هذا المسرح الفجيع هذه المرأة المنتصبة بشحوبها ولطفها تذهب وتجىء كأنها تجس الأرض جسا وهى مستغرقة بما تهتم به ، فلا تبالى بالعاصفة ولا بأحد ممن ينظرون إليها حتى كأنها لا تبالى بجرأتها وإقدامها . فكنت أشعر أن بهذا العمل المبرور من الصفاء فى رصانته ما هو أبهى من صفاء السماء ، وقد انقشعت عنا الغيوم فأنظر إلى هذه المرأة كأنها مخلوق أسمى من البشر لأنها وقد أحاطت بها كل هذه المفجعات لم يداخلها الشك لحظة فى وجود ربها ورحمته

من هى يا ترى هذه المرأة ؟ ومن أين أتت ؟ وهل هى منذ زمن بعيد إذ يذكر الناس أنها كانت بائعة ورود ؟ لماذا لم أسمع بها من قبل ؟ لقد جاءت وحدها إلى هذا الكوخ فى مثل هذه الساعة فهى إذاً لا تسارع إلا إلى حيث تدعوها المصائب والأخطار ، فتتجول تحت العواصف بين الغابات فى الجبال مقنعة تحمل الحياة لمن يحتاجون إلى الحياة .

وبينما تحمل كأس الدواء للأعلاء لا تنسى أن تلاطف جديها الأبيض فى طريقها

إن هـذه المرأة تسير بخطواتها المتزنة الهادئة لـكافحة الموت ماشية بالخطوات نفسها إلى موتها

هذا ما كانت تفعله هذه المرأة فى هذا الوادى بينما كنت أنا أرتاد قاعات الميسر وأمشى على سبيل الضلال . ولعلها ولدت فى هـذا الوادى وستدفن فى مقبرته بالقرب من لحد أبى المحبوب . فتذهب من الدنيا دون أن يعرفها الناس وهى التى يسألك الأطفال وهم يذكرونها : — أفما تعرف بريجيت الوردية ؟

ليصعب على بيان ما كنت أشعر به ، وقد وقفت فى زاوية لا أبدى حراكا ولا أتنفس إلا مرتجفاً ، ولاح لى أننى إذا تقدمت لمساعدة هذه المرأة فأوفر عليها خطوة من خطواتها ، أرتكب خرقا وألمس بيدى الدنسة آنية مقدسة

ودامت العاصفة ساعتين حتى سكنت ، فأفاقت العليلة وجلست على فراشها وهى تقول إنها تشعر بالراحة ، فقد أفرج عنها بعد أن تناولت الدواء ؛ فتراكد الأطفال إلى أمهم ينظرون إليها ، وقد تمازج فى عيونهم الفرح والاضطراب وأمسكوا برداء مدام بيارسون

وقال الرجل وهو لا يتزحزح من مكانه : كنت أتوقع هذا لأننا عهدنا الى الـكاهن بأن يصلى ، وقد كلفنا ذلك كثيراً من المـال

وعند ما سمعت هذه الـكلمات الدالة على الخشونة والحمق ، التفت الى مدام بيارسون فرأيت من تعب جفونها ومن التواء قامتها وامتقاع لونها أن التعب والسهر ذهبا بكل قواها . وسمعت العليلة تجاوب زوجها قائلة : جزاك الله خيراً يا زوجى المسكين

ونهضت من مكانى وقد ثار ثائرى لحماقة هؤلاء النـاس الذين يعبرون عن امتنانهم للملاك بتوجيه الثناء الى بخل الـكاهن . وكنت على وشك تقريعهم على عقمهم ومعاملتهم بما يستحقون ، ولـكننى رأيت مدام بيارسون ترفع بذراعيها أحد الأطفال لتقدمه الى أمه قائلة له : قبّل أمك فقد زال عنها الخطر

وجمت إذ سمعت هذه الـكلمات وتفرست فى وجه هذه المرأة فرأيت عليه أوضح اغتباط تنم عنه روح محسنة كريمة ، وكانت آثار التعب قد زالت عن ملامحها فطفح وجهها بالبشر ورفعت شكرها لله هى أيضاً . إن كل ما كانت تطمح إليه هـذه المرضة هو أن تتكلم المدنفة ، أما وهى تتكلم فلتقل ما تشاء ...

وبعد برهة طلبت مدام بيارسون من الأولاد أن ينهضوا خادم المزرعة من رقاده ليوصلها إلى بيتها فتقدمت أطاب إليها أن أسير معها حارساً ما دمت ذاهباً فى الطريق نفسها ، وأعلنت لها أننى أعد قبولها شرفاً لى ، فسألتنى : أفأنت أو كتاف ت ؟ فأجبتها : أنا هو ، وسألتها ما إذا كانت تذكر والدى ، واستغربت ابتسامها عند ما أوردت هـذا السؤال . ولـكنها أخذت بساعدى وخرجنا بسرور إلى الطريق

الفصل الرابع

وكنا نقطع الطريق صامتين ، وسكنت العاصفة فارتعشت الأشجار تنفض عن أغصانها قطرات الأمطار ، وكان لم يزل على الأفق البعيد ومضان

لبقايا البروق وهبت من الأعشاب الرطيبة عبقات نشرها الهواء وقد دبت الحرارة فيه . وانقشعت السحب عن وجه السماء فنمر القمر بأنواره قمم الجبال

وذهب فكرى يتلمس من الصدف أسرارها وقد عجبت لها تجمع فى ساعات بينى وبين امرأة ما كنت لأظن أنها موجودة عند ما أشرقت الشمس ، وهأنذا أصحبها فى طريقها القفر فى العراء تحت جنح الليل

لقد هبات هذه المرأة أن ترافقنى لوثوقها من شرف محتدى فهى الآن تستند إلى ذراعى وتسير معى مستسلمة مطمئنة

وكنت أرى فى هذه الثقة كثيراً من الجراءة أو كثيراً من السذاجة ، وشعرت أن رفيقتى تجمع بين هذه وتلك لأنها بهذه القوة المزدوجة دفعت بقلبى إلى عاطفة الطهر والافتخار

وبدأ حديثنا يدور على الريضة التى تركنا فى الكوخ ، ثم تحول إلى مشاهد الطريق وما خطر لأحدنا أن يوجه إلى الآخر ما يوجهه المتعارفان حديثاً . وتكلمت مدام بيارسون عن أبى باللهجة نفسها التى ذكرته بها المرة الأولى أى بلهجة فيها شىء من السرور الرصين ، فبدأت أفهم كلما توغلت فى الحديث معها سبب تكلمها بهذه اللهجة لا عن الموت فحسب بل أيضاً عن الحياة وما فيها من حوادث وآلام ، فأدركت أن ليس فى الأرض من ألم تراه مبعثاً للشكوى من الله ، لذلك كان ابتسامها عبادة وتسليما لارادته

وحدثتها عن حياة العزلة التى اخترتها فقالت إن عمتها كانت تجتمع بوالدى أكثر مما كان يتسنى لها أن تجتمع به هى ، لأن عمتها كانت تلعب وإياه بالورق فى السهرات ، وأخيراً دعتنى إلى زيارتها

وعند ما وصلنا إلى منتصف الطريق أحست بالاعياء فجلست على مقعد كانت وقته الأغصان الغضة بلل الأمطار ، فوقفت أمامها أنظر إلى أشعة القمر الباهتة تنير جبينها ، وبعد دقائق نهضت وإذ رأتنى ذاهلاً قالت : فيماذا تفكر ؟ أفما آن لنا أن نستأنف السير ؟

— كنت أفكر فى الغاية التى خلقك الله لها فأدركت أنه أوجدك رحمة للعالمين

— إنها الكلمة لا أحملها منك إلا على محمل الاطراء

— ولماذا ؟

— لأنه يلوح لى أنك لم تزل فى ريعان العمر

— أفليس فى العالم من بلغوا من العمر أكثر ما تدل سيماؤهم عليه ؟

— لقد يكون ذلك كما أنه يمكن للانسان أن يأتى بأقوال أنضج منه

— أفما تعتقدين بالاختبار ؟

— إن ما أعرفه عنه هو أن أكثر الناس يطلقون اسمه على أحزانهم أو على أعمالهم الجنونية فما هو مبلغ المعرفة التى يتوصل إليها من كان فى سنك ؟

— ربَّ رجل فى العشرين رأى من الدهر ما لم تره امرأة فى الثلاثين ، فان ما يتمتع به الرجال من الحرية يصل بهم إلى صميم الحياة بأسرع مما تصل النساء . فالرجال يتهافتون على ما يجتذبهم دون حائل فيختبرون كل الأمور . فاذا ما لاح لهم أمل مشوا إليه ، حتى إذا بلغوه ارتدوا عنه تاركين الأمل

مضيئاً على الطريق ، وقد خدعتهم السعادة بما منتهم من مواعيد

وكنت أسير فى كلامى على هـذا النمط حتى بلغنا أكمة ينحدر الطريق منها إلى الوادى ، وكأن الانحدار استهوى رفيقتى فبـدأت تقفز برشاقة فجاريتها وسرنا ركضا وساعدنا مشتبكان والعشب المبتل تحت أرجلنا يزيد فى انزلاقنا ، وهكذا انحدرنا كطيرين أصابهما الدوار حتى بلغنا قاعدة الأكمة

وقالت : لقـد كنت متعبة فزال تعبى الآن ، فهلا عالجت اختباراتك بما أعالج به تعبى . . . . لقد سرنا بسرعة فسنتناول الطعام بشهية

الفصل الخامس

وذهبت لزيارتها فى اليوم التالى فوجدتها جالسة إلى البيانو ، ورأيت العمة الشيخة قرب النافذة منهمكة فى الحياكة ، وكانت الغرفة الصغيرة مليئة بالأزهار وشعاع الشمس يغمر العرائش المحيطة بها حيث نصب قفص كبير تتطاير فيه العصافير

وكنت أتوقع أن أرى زاهدة عابدة أو على الأقل امرأة قروية لا علم لها بشىء مما يجرى وراء منطقة ضاحيتها ولا تحيد عن عادات محيطها . وقد كنت أنظر إلى من يعيشون منعزلين كأنهم يختفون عن الناس هنا وهنالك فى المدن بشىء من الحذر كأنى أرى فيهم بثرا آسنة فسد فيها الهواء ؛ فان فى كل ما يتلفع بالنسيان على الأرض شيئاً من الموت . غير أننى رأيت على مكتب مدام بيارسون جرائد ومجلات حديثة كانت ترصد لها ما يتبقى لديها من الوقت ، وقد كان كل ما حولها من الرياش وما تلبسه من ثياب يدل على التجديد فى الزى والحياة ؛ أما هى فكانت تتمتع بكل ذلك وكأنها منسلخة عما حولها . وقد استرعى انتباهى ما فى ذوقها من التناسق الذى يندّ عن كل مستغرب ، فلا تأنس إلاّ للجدة والحسن ؛ وكان حديثها يدل على علم مستكمل ، فما كانت تتناول موضوعا دون الاجادة فيه ، فكنت أحس بأن وراء هذه السذاجة غورا مليئاً بالكنوز وأن ذكاء طليقا وافرا يرف فوق قلبها الهادئ فى عزلتها ، فكأن هـذا الذكاء طير من أطيار السواحل يتعالى إلى السحاب مرفرفا فوق طحلب الصخور حيث ابتنى عشه .

ودار حديثنا حول الأدب والموسيقى وكدنا نتناول السياسة ، وكانت قد ذهبت فى الشتاء إلى باريس وما كانت تتصل بالمجتمع إلا فى فترات متقطعة ، غير أن القليل الذى كانت تشاهده كان يكفيها لفتح مجال وسيع أمام تفكيرها .

وكان خير ما يجملها سرور هادئ لا يصل إلى المرح الذى يثب وثباً ، فكأنها خلقت زهرة عبيرها السرور .

ويعجز بيانى عن وصف ما كانت تفعل عيناها السوداوان وهما تلتمعان على صفحة وجهها الشاحب . ومما كان يزيد فى بهائها سكنات وحركات تأتى بها عفوا فتدل على أنها عركت الدهر وبلت الحياة

وما أدرى أية قوة كانت تمان أن السرور المكلل لجبين هذه المرأة لم يأتها من هـذا العالم ، بل أنزل عليها من السماء وأنها ستعود بهذا السرور كاملاً إلى الله بالرغم عن الناس . فكانت هذه المرأة تتجلى لى فى بعض اللحظات كاملة قبس تتنسم هبوب الريح لتقى النور المشع فى يدها

وما أمضيت ساعة فى الغرفة الصغيرة حتى اندفعت أحدث صاحبتها عن كل سرائرى ذاكرا حياتى الماضية وما تركت لى من أصحاب وما تحملت منها من الأحزان ؛ وكنت أتمشى فى الغرفة ، فتارة أنحنى على الأزهار أنشق عبيرها وتارة أرفع رأسى إلى السماء محدقا بالشمس ، ثم تقدمت إلى مدام بيارسون أخيراً ورجوتها أن تسمعنى إنشادها ، فما ترددت وبدأت تنشد ، فذهبت إلى النافذة لأتطلع إلى الطيور بينما أنتصت إلى الانشاد . وخطرت على بالى كلمة لوبتان وهى : (لا أحب الحزن ولا أحترمه بالرغم من إجماع الناس على تمجيده ، فما الحزن إلا كلمة حمقاء جعلها الناس حلية للحكمة والفضيلة)

وسمعت صوتى يتعالى بالرغم منى قائلاً : يا للسعادة ويا للراحة والمسرة والسلوان !

فرفعت العمة رأسها ونظرت إلىّ نظرة استغراب وتوقفت مدام بيارسون فجأة عن الانشاد ، فملا احمرار الخجل جبينى إذ شعرت بما أتيت من جنون ، فارتميت على المقعد صامتاً

ثم نزلت وإياها إلى الحديقة ، فرأيت هنالك الجدى الأبيض راقداً على العشب ؛ ولما رآنا هب نحوها ومشى ليتبعنا ، وما قطعنا أول ممشى فى الحديقة حتى لاح لنا قرب المدخل شاب طويل القامة شاحب الوجه ملتف برداء أسود ، فاجتاز الحاجز دون أن يقرع الجرس وتقدم إلى مدام بيارسون مسلماً ، ولحظت أن غمامة سوداء مرت على ملامح هذا الرجل عند ما رآنى ، وقد تشاءمت أنا لمرآه ؛ وكان القادم كاهناً يدعى مركانسون ، كنت شاهدته فى القرية وهو من خريجى سان سولبيس ومن أنسباء الكاهن خادم الرعية

وكان هذا الرجل سمينا شاحب اللون وما كنت حياتى إلا مستقبحاً هذا النوع من الصحة العليلة ؛ وكان هذا الرجل فضلاً عن هذا التناقض فى شخصه يتكلم بلهجة تدل على الادعاء ، فكان يورد ألفاظه متوثبة متمهلة ، وكان فى مشيته شىء من التصنع المتثاقل زاد فى نفورى منه ؛ أما نظراته فلا يسعنى أن أقول عنها إنها نظرات لأنها ما كانت لتعنى شيئاً

ذلك كان حكمى على هذا الرجل من ملامحه ، وما كذبت الأيام فراستى فيه ، وا أسفاه ...

جلس هذا الرجل على مقعد وبدأ بالتحدث عن باريس ، وكان يدعوها بابل العصر ، فقال إنه جاء منها وهو يعرف جميع من فيها ، وأنه كان يتردد على مدام ب وهى ملاك كريم ، فيقوم بالوعظ والارشاد فى قاعتها الكبرى حيث كان الناس يأتون زرافات ليصغوا إلى أقواله وهم ساجدون . (وما كان الذى يقوله هذا الرجل كذبا ويا للأسف)

وذهب فى حديثه فقال إن من عرفه إلى هذا البيت الكريم إنما كان أحد زملائه ؛ غير أن هذا الزميل كان قد أغوى فتاة ، فطرد من المدرسة لهذا الجرم الشنيع

ثم انقلب هذا المحدث بكيل الثناء لمدام بيارسون لما تتصف به من حب الخير وما تأتيه من أعمال البر بالاعتناء بالمرضى والسهر عليهم بنفسها قائلاً : إنها لأعمال جليلة لن أغفل عن ذكرها فى سان سولبيس

فكأنه كان يقول إنه لن يغفل ذكر هذه الأعمال عند أقدام عرش الله

وكنت تعبت من سماع هذا الخطاب فاستلقيت على العشب وبدأت أداعب الجدي الأبيض ، فأنزل مركانسون نظره المنطقي على قائلاً : لقد كان فاريتو الشهير يحب أن ينطرح على العشب ويداعب الحيوانات

فقلت : هذا نوع من الهوس الطاهر ياحضرة القس ؛ ولو أن هوس الناس كله من هذا النوع لكانت الأمور تجرى مجراها ولا تحتاج لتدخل أحد فيها

وما أعجبه جوابي فقطب جبينه وغير الحديث قائلاً إنه موفد من قبل كاهن القرية ليحدث مدام بيارسون عن رجل فقير لايملك ما يقتات به ، وبعد أن دل على مسكن الرجل قال إنه يؤمل أن تهتم السيدة الفاضلة بأمره

وكنت أتوقع أن تتكلم هي لتزيل صوتها أثر صوت الكاهن الأبح من أذنى ، فما أبدت جوابا بل انحنت مسلمة ، فنهض الكاهن وذهب في سبيله

وما توارى حتى عاودنا الحبور ، فدعتني للذهاب معها إلى حجرة النبات في طرف الحديقة ، وكانت هذه السيدة تعتني بأزهارها عنايتها بالأطيار والفلاحين ، لأنها كانت تود أن ترى كل شيء حولها متمتعاً بالصحة فلا يحرم أحد أو شيء قطرة الماء وشعاع الشمس ، فما كانت تشعر بالسعادة إلا إذا بلغت ما يريده الملاك الكامن فيها

وكانت حجرة أزهارها على غاية من الجمال ، وبعد أن مررنا بها قالت : هذه هي مملكتي الصغيرة وقد رأيت كل ما فيها لأن هنا آخر حدودها

فقلت لها : لقد تذرعت باسم والدي لدخول هذه المملكة فاسمحي لي باسمه أيضاً أن أعود لأومن بالسعادة وأتأكد أنها لم تدفع بي إلى زاوية النسيان

مدت يدها إلى فلمستها دون أن أجسر على رفعها إلى شفتي ، وأمسى المساء فعدت إلى مسكني ؛ وعندما أوصدت بابي واستلقيت على فراشي لاح البيت الأبيض الصغير أمام عيني ، فكنت أراني أخترق القرية متجهاً إلى الحاجز لأقرع بابه . وهتفت قائلاً : تبارك الله ، يا قلبي ، فانك لم تزل فتيا وعكنك أن تحيا وعكنك أن تحب بعد

(يتبع) فليكس فارس

واجب !

ما الذي يمنعك من أن توفر لنفسك القومسيون ومصاريف المحل و . . . الخ إذا وجدت أمامك مورد مصري يستورد لك الصنف من أشهر فبارك ألمانيا ويسلمها لك رأساً بتكاليفها فقط

مجرب

قلم حبر الكتابة سفنكس القلم الأنيق ذو الريشة الذهب المضمونة عيار ١٤ مثله في السوق يباع بثمانين قرشا . أرسل فقط ٤٠ قرشا إلى حسين حسنين شارع الطيران نمرة ٣١ مصر الجديدة وللخارج زيادة خمسة قروش يرسل إليكم الطلب في الحال

مطلوب وكلاء في الشرق والأقاليم للقلم ولأصناف أخرى مما نستورده من الخارج ؟

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصل السابق

« شرع أودسيوس يروى قصته للملك ألسكينوس ، فذكر كيف أقلعت سفائنه بعد إذ وضعت حرب طروادة أوزارها ، وكيف أرسلت فى مياه إزماروس ، وذكر ما كان من غزوته لهذه المدينة ونهبه لها ، وكيف كر أهلها عليهم فأوقعوا بهم ... وما كان من إبحاره ، ورسوه عند جزيرة اللوتوفاجى ، أكلة اللوتس ، وما كان من مشاركة بعض رجاله أهل الجزيرة فى أكل هذا اللوتس العجيب ونسيانهم بذلك أوطانهم ، وتفضيلهم الاقامة بين اللوتوفاجى ، حتى اضطر أن يذهب إليهم بنفسه ، ويرغمهم على العود إلى الأسطول مكبلين فى الأصفاد ... ثم روى ما حدث له بعد هذا فى أرض المردة — وكيف حبسهم السيكلوب فى كهفه ، وكيف كان يفتذى ويتعشى باثنين اثنين من رجاله ، وما دبروا له من قلع عينه بجذع الزيتونة المحمى فى النار ، وما كان من هربهم معلقين ببطون الكباش مفلتين من أذى السيكلوب ، وما كان من إغاظة أوديسيوس له وهو واقف ينشق منه فى سفينته فى عرض البحر ... وهو هنا يتم قصته ... »

أودسيوس يروى قصته

ا — إيولوس وجعبة الرياح الأربع
ب — فى جزيرة الجبابرة
ج — غرام سيرس

« وبلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هيوتاس ، حبيب الآلهة . وهى جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسى الهائل ، وأواذيها التى يتكسر فوقها الموج . ولقد زوج الملك أبناءه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم فى قصره المنيف ، فى فىء وارف من حب الملكة ، فى بُلَهْنية ورَغد ، وعيش واسع مُخَفْرج ، ونعمى طائلة ، ولذائذ شتى . . . يقضون وقتهم فى لهو برىء ومرح ، ويأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضوعة ، وزرابى مبثوثة . . . وأرائك من حرير

ولقد لقينا الملك بالبشر والايناس ، وأقمنا فى كنفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ؛ ثم سألنى فقصصت عليه قصة (إليوم) وكيف سقطت فى أيدينا ، وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا فى ذاك العباب ، عاشين ، ضاربين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يعيدنى فى خفارته إلى بلادى ، فأجاب سُؤلى ، وأمدنى بكل ما ييسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معى إلى البحر ، حيث قدم إلى جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير جسَدِ ، خُيل إلى أنه ذبح فى سن التاسعة ، وهى جعبة من صنع جوف سيد الأولمب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم أجمع ، وأحكم رباطها بسلك فضى متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا باذن ... وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس — رب النسيم الحلو — فملأ شراعنا ،

وهب رخاء بين أيدينا ... وا أسفاه ! لقد كانت هباته اللطيفة الرَّخية عبثاً ، وضاعت فى غفلة رجالى ، سدى ! ! . . فلقد جرت بنا الفلك آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شطئان إيثا كا فخفقت قلوبنا فرحا ، واستطعت أنا نفسى أن ألمح مواطنىَّ الأعزاء يوقدون النار فى شعاف الجبال ... بَيد أنى كنت منهو كا موهونا من كثرة العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عينى سِنةٌ من الكرى ، لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ، ولم أكن آمن أحداً من رجالى على الاضطلاع بها خشية الونى ، ومخافة التأخير ... وبينما كنت نائماً ، لعب الوسواس فى صدور رجالى ، زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب والفضة أسبغها علىَّ إيولوس الملك ... قال قائلهم : « يا للآلهة ! ! أبداً ما وطئت قدما أودسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا عليه فرحين معجبين مُكبِرين ! وهو اليوم يعود من طروادة ومعه من طُرَفها وسلبها الجم الكثير . . . أما نحن فوا أسفاه علينا ! لقد شار كناه تلك الرحلة المشئومة ، وهانحن نرضى من الغنيمة بالأياب ، ونعود منها أصفار الأيدى ، لا أمامنا ولا وراءنا ! وها هو أيضاً قد فاز دوننا برفد ملك الرياح ، إيولوس العظيم ؛ هلموا يا رفاق ! البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما احتوت من أصفر وأبيض ، وأعطيات وهبات ... ولهى ! » ، وأقبل بعضهم على بعض ، وامتدت أيديهم إلى الجعبة فحلوا رباطها ... وا حسرتاه ! لقد انطلقت الرياح الحبيسة ، وزمجرت العواصف الهوج من كل صوب ، وطفقت تكسحنا فى شدة وعنف ... بعيداً ... من إيثا كا ! ! ولقد قفزت من غفوتى خائفاً مذعوراً ... حتى لَخُيِّل لى أن طوفاناً قد غمرنا ! . . . وظللت برهة فى ذهول ودهش ، وطغت الأحزان على قلبى ، ورانت الهموم على نفسى ، ونت اليأس فى عضدى ... ولكننى لم أجد من الصبر بداً ؛ فتحملت الكارثة فى هدوء وصمت ، وعصبت رأسى بثوب شف ، وانبطحت فى قمرتى ... وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هوادة ، حتى بلغ شطئان الأيوليين مرة أخرى ... وهنالك بكى صحبى ... ولات حين بكاء ! ! وهبطنا الشاطئ ، وكان عمنا أن نرتشف من ماء إيوليا العذب رشفات ، ثم جلسنا نعد أكلة عجلى ونلتهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى قصر الملك ثانية ... وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسناء المصون ، وأبناؤه الغر الميامين ... ولشد ما بدهه أن يرانا بعد طول النأى فحدجنا وقال : « ويك أودسيوس فيم عدت أدراجك ؟ وأى سلطان مشئوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل إلى بلادك ، وتلقى آلك ؟ أو أى آلٍ آخرين ؟ ! » ، وكان فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه : « تبارك الملك ! لقد خانتى رجالى اللؤماء ، وخاننى معهم طائف من الكرى ! فاذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ، وهو ما يزال صاحب الحوْل والطوْل ! » ... وهكذا شاءت المقادير أن أقف ضارعاً إلى هذا الملك مرة أخرى ... وقد تلبّث أبناؤه صامتين لا ينبسون ... وا كفهر وجه الملك وقال : « أيها الرجل انطلق ... إغرب عن جزيرتنا هذه يا أتعس الناس ! إنطلق فوالله إنى لأستغفر الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من الأرباب ، مغضوب عليه من

السماء ! » . وهكذا طردنى الملك شر طردة ، فمضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ، وأبحرنا نذرع اليم المصطخب بمجاذيفنا ، ونسكب فى هذه الأعماق المضطربة قوانا ، لا أمل لنا فى الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء فى الخلاص من هذه البؤوس ! ووصلنا مدينة ليستريجونيا بعد نصب ستة أيام بلياليها ... تلك المدينة الموحشة التى بناها منالاموس العظيم . . . والتى (تغزو الحشرات عروجها نهاراً ، فيخرج الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء الكثة التى تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائلتها ، فاذا جن الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرها ، وذهبوا بالنعم لترعى فى هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب الذى يكون قد غلبه النعاس)[1] .. وصلنا الى هذه المدينة فألفيناها محصنة بصور عظيم من الحجر الصلد ، ينحدر قليلا قليلا الى الميناء ، بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة ، لا يتحرك فيه الماء . . . وقد أدخل رجالى سفائنهم فى هذا البوغاز ، وآثرت أنا أن أظل بسفينتى عند فمه مما يلى البحر ، فألقيت مرساى ، وثبتها فى حجر كبير ، ثم وثبت الى الشاطئ ، وتسنمت ربوة عالية ، وأخذت أجيل ناظرى فى الجزيرة . . . ولم أقف لأنس أو حيوان على أثر ، وبدت الأرض جرداء بلقعا ؛ بيد أن دخاناً كثيفاً كان يصاعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالى جعلت عليهم ثالثاً رئيساً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتجسسوا أخبار أهلها ... وقد قص هؤلاء آثار العربات التى يستعملها السكان فى نقل الأخشاب من الغابة الى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ؛ فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك أنتيفاس ملك هذه البلدة . . . ومشت بين أيديهم حتى كانوا فى قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يجسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيهم من الفزع وكانت هذه هى الملكة ، التى صاحت عند ما لمحت رجالى ، بزوجها ، فأقبل يهتز وتتزلزل الأرض من تحته ، وما كاد يلمح هؤلاء الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فحطمه . . . كأنما أقبل ليخوض معمعة . . . ؛ وانطلق الآخران لا يلويان على شىء ؛ حتى بلغا سفائننا . . . ثم زجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه ، فأقبلوا إليه من كل حدب ، مردة جبارين كالأغوال ، لا عدد لهم ، ولا تقع العين على أبشع منهم . . . ثم تهاوَوْا الى الشاطئ حيث أرست سفننا ، فجعلوا يقذفوننا بحجارة من سجيل ، جعلت رجالنا كمصف ما كول ء وجعلت مراكبنا حطاماً كان يهوى الى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبارة ينشلون قتلانا بحرابهم ليعودوا بها الى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم .. وهكذا استمرت هذه الذبحة الدامية .. وكنت واقفاً فى مركبى ، وجرازى الى جانبى ، فأسرعت الى حبل المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالى الى مجاذيفهم فأعملوا فيها أيديهم . . . وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التى كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا ، فتشيع فى فرائصنا خطر الموت . . وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تمتلج قلوبنا هما وأسى على إخواننا . . ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ،

(١) كلام هومر هنا غامض شديد الغموض ولذلك اتكلنا فى إبانته على شرح مترجميه

حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر الكهرماني ، أخت إيتيس الحكيم من أبيها الشمس ، وأمها پرس ابنة أوشيانوس [1] . وكأنما مشت عناية السماء بين أيدينا فرسونا في جون هادئ ساكن في غير جلبة ولا ضجيج ، ثم هبطنا الى الساحل فلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين وجهد ، وكانا فرائس لنا في أضالعنا من شجو وهم وشجن . ثم إني تسلحت برمحي وسيفي وحثثت خطاي في أسناد الجبل حتى كنت في ذراه الشاهقة ، ووقفت ثمة أنظر وأتحسس ، فلمحت في البعد دخاناً يتصاعد بين الدوح والزهر من قصر سيرس . وبدا لي أن أتوجه إليه من فوري عسى أن أجد عنده خيراً . ولقد ترددت بعد ذلك كثيراً وكدت أعود أدراجي الى السفينة لأرسل نفراً من رجالي يكشفون لي الطريق الى القصر ؛ وما كدت أخطو خطوات حتى ساق إلى أحد الآلهة بظبي غرير شرد من المرج المعشب الحلو ليستقي مما ألح به من ظمأ فأرسلت إليه رمحي فقصم ظهره ، وسقط يتخبط في دمه ؛ وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أياطله واحتملته على ظهري ، ومضيت قُدُماً الى رفاق متوكئاً في كل خطوة على رمحي إذ لم تعد شيخوختي تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالي في مرح وظرف : « هلموا يا رفاق فإن نقضي قبل أن تحين آجالنا ! ! هلموا الى ظبي فنيق وخمر عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق . . » وأقبلوا فرحين وشمروا عن سواعدهم وهم يستهولون من جزل هذا القنص القريض ، وظللنا يومنا هذا نطعم ونشرب حتى إذا أرخى الليل سدوله انكفأنا على الشاطئ

(1) لم يتعرض شراح هومر لهذه الفقرة ولذا أثبتناها كما هي

نغط في سبات هادئ . . . وذرت أورورا ابنة الفجر الوردية فهتفت برجالي ، فهبوا ، ثم جلسنا ساعة نتشاور ، وأنا أقول لهم : « أيها الرفاق ! يا إخوان الشدائد ! ها نحن قد لصقنا بهذه الأرض ولسنا ندري أيان نذهب ؟ هل نشرق ، أم نغرب أم نظل هنا أبد الدهر ؟ ! ولكن هلموا ننظر لأنفسنا خلاصاً مما نحن فيه . . . فإني حينما تسنمت ذروة هذا الجبل أجلت الطرف في أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها جزيرة تترامى الى مدى البصر ؛ ثم إني آنست دخاناً يعلو في الجو من وسطها ، ينبثق من سروات طوال فيها ، فَرَوْا لأنفسكم أثابكم الله ! » — وكأنما سقط في أيديهم ، وكأنما حاكت بهم ذكريات آنتيفاتاس وقومه اللستريجون ؛ وما لقوا من هول السكلاب أكلة اللحم البشري ، فبكوا ساعة من الزمان ، ثم استرجعوا حيث لا يجدي البكاء . . ثم إني قسمتهم فريقين ، جعلت على أحدهما يوريلاخوس ، قِرْن الآلهة ، وجعلت نفسي على الفريق الآخر ، وجلسنا نقترع ، من يذهب لارتياد الجزيرة ، فوضعنا الرقاع في خوذتي ، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس ، فمضى ، وتحت إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا ، كانوا جميعاً يذرفون الدمع خوفاً وفزعاً مما وجهوا اليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاءً ببكاء . . . ووجدوا قصر سيرس في بطيحة [1] منخفضة ، فماذا رأوا ؟ ! قصر منيف مُمَرَّد تحدق به تماثيل حية من سباع وذؤبان سحرتها سيرس بعقاقيرها ذات القوى الخارقة الخفية ... ولم تؤذهم تلك الوحوش ، بل كانت تثب على أرجلها الخلفية في دل وتلطف ، ثم تبصبص بأذنابها كأنها كلاب السادة العظماء

(1) الأرض المتسعة

حينما تتملقهم فى وليمة من أجل لقيمات ... وصعقوا أول الأمر ؛ ثم انطلقوا حتى كانوا تلقاء باب الربة صاحبة المكان ... وتسمعوا ، فاذا سيرس تتغنى بصوتها المعجب المطرب وهى تعمل على نولها ، مشغولة بنسيج سابرى عبقرى عجيب ، ليس يقدر على مثله إلا الآلهة . وكان فى رجال الفريق أمير عظيم هو عندى أربطهم جأشاً فقال : « أتسمعون أيها الأصدقاء إلى هـذا الغناء الحلو تردده جنبات القصر ؟ إنه لا شك غناء ربة الدار التى تعمل على نولها ، ولست أدرى أربة خالدة هى ، أم من بنـات حواء .. وعلى كل هلموا نهتف بها . » وتنادَوْا ، وأقبلت سـيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا .. فدخلوا ، وآسفاه ، إلا يوريلوخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . ولقد قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش فخمة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقى بخمر وعسل ثم جىء بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى آكليها ، وتنسيهم ماسلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ثم ضربت كلا بعصاها السحرية بعد إذ أكلوا ورَوَوْا ، واستاقتهم إلى حظائرها حيث مسخوا فـكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألبـابهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والـكرز[١] الـكلابى . وما إلى هـذا وذاك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة

وأقبـل يوريلوخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فـما يكاد يبين ، ثم هدأ روعه قليلاً فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس يا ذا المجد ! لقد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا ، وبرود هذا الوادى الأشب ، فوجدنا قصراً مشيداً فوق أكمة عالية ، وسـط بطيحة منخفضة ، ذا قبة سامقة جلست تحتها امرأة أو ربة — لا أدرى — وهى لاتفتأ تعمل على منسج بخفة وصنعة ، وترسل ألحاناً حنوناً حلوة ؛ وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت فلقيتهم بالبشر وفتحت لهم بابها على مصراعيه فدخلوا جميعاً — حاشاى — فقد أوجست خيفة ، ووقر فى قلبى أن ثمة شركا نوشـك أن نتردى فيه ؛ وقد راقبت رفاقى إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة ، ثم هالنى ألا أراهم فجأة !! » وما كاد ينتهى حتى قفزت إلى سـيفى فتسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ، وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قبل ولـكنه ركع أمامى وتعلق بساقى وجعل يرجو ويلحف فى الرجاء ألا تذهب .. « فانك لن تفشل فى إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل فى أن تنجو بنفسك . فانطلق عن بقى منا ، ويا حبذا لو استطعنا الفرار ! » ولـكنى أجبته أن له أن يبقى هو يأكل ويشرب فى السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى

وانطلقت لا ألوى على شىء ، ولـكنى قبل أن أبلغ البطيحة التى بها القصر ، لقينى هرمز الحبيب إلـه العصا السحرية . وكانت مخايل الصبا وبداوات الشباب تتدفق فى بردتيه ، وحمرة الورد تلتهب فى خديه ، لقينى فصافحنى متلطفاً وقال : « أيها التعس أيان تضطرب وحدك فى هذه الأرض وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك فى حظائرها بعد إذ سحرتهم إلى خنازير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك معهم إلى الأبد ؟ ولـكن اصغ إلى ؛ إنى

(١) الـكرز : وجمعه الـكراز بالضم الأقط ، والمراد هنا فاكهة الـكريز

سأحبط ما فعلت ، وسأحميك وأحفظك . خُذ هذا المقار[1] ولا يهمك بعد أن تدخل قصر سيرس فانه ينقذك من كل خطر ... وهلم أعلمك ما عندها من السحر ، إنها ستمزج لك كأساً من الشراب بما عندها من رجس ، وستضع لك منه فى طعام تقدمه لك فكلْ وارْوَ ولا تبالِ ، فهذه البقلة العجيبة التى أعطيتك ستحبط كل ما تحيك لك فلا تقدر على مسْخِك كمن مسَخت من رفاقك ... فاذا عالجتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب ، وأرسل إليها شرر الغضب من عينيك فانها حينذاك تنقاد لك ، وتقودك إلى فراشها ، وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى ، فاياك أن تنصاع لها حتى تعطيك موثقها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك بأذى ، واحذر ياصاح أن تدنس فضل خيرك بما ركب فى طبعها من شر . » وانحنى رسول الآلهة فالتقط عشبة من الأرض ثم وضعها فى يدى وأخذ يكشف لى أسرارها ويقفنى على قواها الخارقة . وذكر لى أن اسمها (مولى) ، وبه يدعونها فى السماء وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يشفون بها رُقَى السحر ... وكانت جذورها سوداً حالكة السواد أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة البياض كاللبن . . وودعنى هرمز ، ثم رفّ ورفّ ، وعرج فى السماء . وانطلقت أنا أخبط فى ظلمات من هواجسى حتى كنت لدى باب ربة السحر التى وجدتها تعمل كما ذكر لى صاحبى على نولها . . . وصحت صيحة عالية ، فأقبلت تتهادى نحوى وفتحت مصاريع أبوابها ، ودعتنى ، فدلفت وراءها ، حتى كنا عند عرش عظيم ممرد فضى ، ذى درج ، فاستوبت عليه ، وذهبت هى فمزجت لى كأساً من الخمر بشىء من عقارها ، وقدمته لى فاحتسيته ، بيد أننى لم أتغير ولم أتحول عن صورتى ، فضربتنى بعصاها السحرية وهى تقول : « هلم إلى الحظيرة حيث تقر مع رفاقك » ولم تكد تصمت حتى وثبت من مقعدى وامتشقت سيفى ، وهجمت عليها ، وفى عينى جحيمان من نار الغضب ؛ فروّعت ربة السحر ، وزلزلت زلزالاً عظيما ، وجرت نحوى ، وركعت عند قدمى ، وتعلقت بساقى ، وأخذت تضرع إلى وتقول فى بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يا من لم تسحرك جرعتى الهائلة التى لم يذقها أحد وظل فى صورته لحظة واحدة ! ولكنك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر . . . ولكن هلم . . . تعال . . . إلىّ إلىّ أعرفك أحسن المعرفة . . . إنما أنت أوديسيوس الصناع ذو الذكر ، ولقد وصلت إلى هنا من اليوم يدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرنى بمجيئك ! ولكن اغمد سيفك ، وهلم ننعم بالعناق فوق فراشى الوثير كزوجين ، وليفرخ روعك وليهدأ بالك . . اطمئن يا أوديسيوس هلم ! » وصمتت لحظة ثم انطلقت أجيبها : « سيرس ! كيف تتصورين أن يفرخ روعى ويهدأ بالى وقد حبست فى رحابك رفاقى وشركاء رحلتى بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؛ ثم تخشين إفلاتى فتخادعيننى وتبهرجين على بطلاسم الحب ، داعية إياى إلى فراشك لتشوبى صفاء فضيلتى برجس رذيلتك ... لا ...لا ، إنى لن أقاسمك هذا الفراش حتى تقاسمينى أغلظ الأقسام ألا تلحقى بى أذى ، وألا تحاولى الاضرار بى » وراحت تحلف وتؤكد الحلف ، وتقسم وتغلظ فى القسم ، ثم إنى انطرحت

(١) واحد العقاقير

فى سريرها الفخم الديباجى . وأقبلت أربع من عرائس البحر ، خطرن من اليم وأقبلن من العيون والحرج المجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما الأولى فقد أصلحت من سريرنا وطرحت عليه مطارف الخز ؛ وأما الثانية فقد صفت الموائد ورتبت الكراسى ، وجاءت الثالثة بزق عظيم من خمر طيبة ملأت بها الكؤوس الذهبية المنضدة فوق الموائد — أما الرابعة فقد أعدت لى حماماً ساخناً وضمختنى بأحسن الروائح والطيوب ، حتى انتعش جسمى الخائر ، وتأرجت روحى الفاترة ... ثم ألبستنى ثوبين غاليين من أندر الديباج ، ومشت بين يدى إلى عرش عظيم مزدان بأحسن التصاوير ، ومطعم بالذهب والفضة ، فاستويت عليه ، واضعاً قدمى على درج من لبلاد ناعم .... وأقبلت بعد ذلك عروس أخرى فصبت الماء على يدى من إبريق من ذهب ، فى طست من فضة ، وجاءت بمائدة حافلة بأشهى الآكال فوضعتها قدامى ، لكننى ما مددت إلى شىء من ذلك يدى ، لما كان يساورنى من الهم ، وما يشغل بالى من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت تميس ، وأخذت تلاطفنى وتقول : « ما لك تجلس ساكتاً هكذا يا أوديسيوس كالذى غشى عليه ما تكاد تمتد يدك إلى شىء ، كأن ألف وسواس يخامرك ؟ أما تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟! ألا ما أكبر غفلتك يا صاح ، إطمئن ، فلقد أعطيتك موثقى وحلفت لك بأغلظ الايمان ! » وأجبتها قائلاً : « كيف تمتد يدى إلى طعام أو شراب ورفاقى ما يزالون فى إسار سحرك ؟ أبداً لن أذوق شيئاً حتى تردهم إلى صورهم ، ثم ألتقى بهم » ونهضت تحمل عصاها السحرية ، وذهبت من فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقى ، وكانوا ما يزالون فى صور الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسحتهم به ، فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى يلثمون يدى ، ودموع الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات القصر ، حتى تأثرت سيرس نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن ليرتيس الصناع ، هلم إلى مركبك فاشدها فوق البر لتكون بمأمن من غوائل البحر ، ثم خبىء كنوزك وأذخارك فى غيران هذه الجبال ، وعد إلى فى جميع رفاقك » وطربت لهذه الفكرة فهرولت إلى الشاطىء حيث لقيت رفاقى الآخرين ينتدبوننا ويذرفون دموعهم علينا . وما إن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويحيون كهذه البهم التى تعود فى المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . وبدت دموع أحزانهم بعبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فى وطنهم النائى المحبوب إيثاكا ، حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا . . . قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك أوطاننا يا أوديسيوس ، وتالله لقد طفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » . وقلت لهم : « هلموا أولاً نجر مركبنا على هذا الشاطىء الهادىء المطمئن ولنخبىء أذخارنا وسلاحنا فى غيران هذه الجبال ، ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم فى أمنة وعز وطعام وشراب ، ونعيم مقيم » . وصدعوا بما أمرتهم إلا يوريلوخوس ، فقد سمر مكانه ، وكأنه لم يحفل بما أخبرت به ، ثم حرك شفتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين الى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً الى سباع أو ذؤبان أو خنازير ، ونظل الى الأبد نحرس عرينها مرغمين ؟ لقد ذهب كثيرون منا ضحية هوس

أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حبسنا المسيكلوب من أجل أطماع رئيسنا الطيش[1] ! » وأوشكت أضرب رأسه بجرازى ، فيخر الى الأرض برغم ما يربطنى به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة ، لولا أن هب رجالى الآخرون يصرخون ويقولون : « أوديسيوس الكريم ! لنتركه هنا ليحرس فلكنا ، أما نحن فراحلون معك الى قصر سيرس ، ولو كان مِلْؤه الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من السفينة على الشاطئ ، وانخرط بوريلوخوس بينهم منصاعاً لنظراتى المتأججة . . . أما ما كان من سيرس حينذاك ، فانها أدخلت رفاقى الى حمّاماتها ثم ضمختهم بأحسن الطيوب ، وخلعت عليهم أفخر الملابس ؛ ولما وصلنا وجدناهم يطعمون ، فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون صحابهم ويبكون ، ثم جلسوا يستمعون الى قصة ما حل باخوانهم ، وهم يصدون زفرات الحزن ، ترددها قباب القصر . ونهضت سيرس فوجهت الى الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز هون عليك ، وليرفه رجالك عن أنفسهم ، ولا يستسلموا هكذا لنوبة الحزن ، ولترقأ دموعهم جميعاً . . . إنى لا أجهل ما تجشموا من أهوال فى ذاك البحر المضطرب ، وما لقوا من فوادح فى كل أرض ، بما كتب لهم فى لوح القضاء . . . ولكن ، تعالوا جميعاً . . . أنعشوا نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح ، ولتستشعروا بأسكم الذى كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شطئان إيثا كا العزيزة . . إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فانها تفت فى عضدكم وتوهى من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم وإلباً عليكم ، ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش وبهجة الحياة ! » ، ووقعت كلماتها فى قلوبنا فأقبلنا على الطعام والمدام ؛ ثم إننا أقمنا عندها عاماً بأكمله فى أرغد عيش وأحسن حال ، متقلبين فى أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان ، وهتف بنا قانون الأزل ، فدعانى رجالى إلى جلسة خارج القصر فقالوا لى : « تذكر يا مولانا وطننا الأول ، فاننا نحن إليه ، ونتمنى لو ساقتنا المقادير إلى شطئانه » ، وكأنما نبهوا منى غافلاً ، فتابعنا يومنا هذا على مائدة ربة السحر فى بلهنية وعيش مخفرج وخمر ، وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه ، وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفتها ، ثم قلت لها فى رجاء وظرف : « سيرس يا ربة ! حيثما لو وفيت بعهدك فأرسلتنا فوق هذا البحر رحمةً بنا ، لنقضى حاجات الوطن ، ولتنقطع شكاوى صحابى التى مزقت نياط قلبى » . وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز ، المعروف بأصالة الرأى ورجاحة الفكر ، إنى لن أقرك على البقاء هنا ، لا أنت ، ولا أحداً من رفاقك ، ولكنك قبل أن تفكر فى شد رحالك إلى بلادك ينبغى أن تذهب فى رحلة شاقة بعيدة المدى ... إلى هيدز[1] . . . دار پلوتو[2] وبرسفونيه . . . حيث تلقى النبى الصدّيق الصالح تيرزياس ، الذى احتفظ وحده فى عالم الموتى بكل أسراره وقواه الغيبية الخارقة ، والذى يثوى فى رحاب مليكة الفناء يتنبأ لها وتستوحيه وتستشيره فيعرّف[3] لك عما يهمك ويقفك على ما ينطوى لك من صحف الغيب » وما كادت تنتهى حتى احلولكت الدنيا فى عينى وتدفقت الهموم فى نفسى ، وأجهشت وأجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل . وما كدت أصحو من هذه النوبة حتى قلت لها : « أنى لى يا ربة أن أذهب الى هيدز ؟ ومنذا الذى

(١) الطائش

(١) الدار الآخرة
(٢) إله الموتى وزوجه
(٣) يتكهن — من العرافة بالكسر

يحدونى اليها ، ولم يسبقنى اليها أحد من أحيـاء البشر ؟ » فقالت تجيبنى : يا سليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك ، ولا يحزنك ألا يكون لك الى هيدز من دليل . بل هلم الى سفينتك فأصلح قلاعها وانشر شراعها وستهب الصَّبا سَجْسَجاً فتُدَهْديكم رويدا ، فاذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطئ النز(١) الذى تنمو فوقه أشـجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم برسفونيه ، فادفعوا إليه بسفينتكم ثم تهاوَوْا الى مثوى بلوتو السحيق الذى يبتدئ عند الصخرة الهـائلة التى تتكسر فوق أواذيها أمواه أشيرون وستيكس وكوكيتوس فاركوا سفينتكم ثمة ، واحفروا عنـدها حفرة ذراعا فى ذراع ، ثم صبوا فى جهتها الأولى قربانا من لبن وعسل ، وفى الثانية خمرا معتقة من أحسن ما تعصرون ، وفى الثالثـة ماء قراحا ، فاذا كانت الرابعة فانثروا الدقيق فوق الجميع ، واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا ، ثم انذروا لهم أن تذبحوا — يوم تعودون الى إيثاكا سالمين — عجلاً جسدا من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشا سموريا ليس فى أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا فاذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم ، فاذبحوا فى الحال كبشا ونعجة سمورية ، على أن تكون رأسا الضحيتين تلقـاء إربوس وعلى أن تشيحوا بوجوهكم تلقاء الشاطئ فاذا صنعتم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج ، فسارعوا الى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها فى النار مصلين ملبين داعين كيما تهدأ نفسا بلوتو وزوجته برسفونيـه ، ولا تسمحوا لأرواح الموتى أن تقرب أضحياتكم ، وذودوهم عنها بأسيافكم حتى تلمحوا تيرزياس قادما فيلقاكم ويحدثكم ويوضح لـكم ما غم عليكم من سبيلـكم فى هذا البحر الرجراج المتلاطم بالأمواج »

وسكتت ، وانبلج الصبح ، فنهضت تصلح من أثوابها وتضفى عليها من شفوفها البيض كالندف ، وتنثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك ، واكتسيت صدارى ودثارى ثم توجهت الى رفاقى فأيقظتهم وحثثتهم على الابحار من توّنا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعا إلا فتى يافعا لم يكن له يدان فى هذه الشدائد ، بل كان كل همه فى كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لايعى شيئا . وكان اسمه الپنور ، وكان قد غرق فى سبات عميق فوق سطح القصر وقد أفزعه ماسمع من جلجلة أسلحتنا فهب من نومه مخمورا متخاذلاً وساقته قدماه الى حافة السطح فزلت قدماه ، وسقط إلى الأرض ، ودق عنقه ، فسبقت روحه الى هيدز . وقلت لأصحابى لما اكتمل جمعهم : أتظنون أنا مبحرون الى أوطاننا ! ! كلا يا رفاق ! فأمامنا رحلة طويلة شاقة الى هيدز ، حيث ينبغى أن نلق تيرزياس النبى الصالح ليُعَرِّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيحتها لسامعون ! » ، وخفقت قلوب إخوانى ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أنلا شىء غير هذا ينفعهم . وانقلبنا إلى البحر ، وكانوا مازالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم . . . وفيما نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق إلى السـفينة كبشاً عظيماً ونعجةً سمورية ... وإن كنا لم نرها قط ، ومنذا الذى تستطيع عيناه أن تريا ربة كريمة رائحة أو جائية إن لم تشأ هى أن تكشف نفسها ؟ »

(يتبع)

دريني خشبة

(١) الذى ينز الماء مصدر استعمل صفة oozy